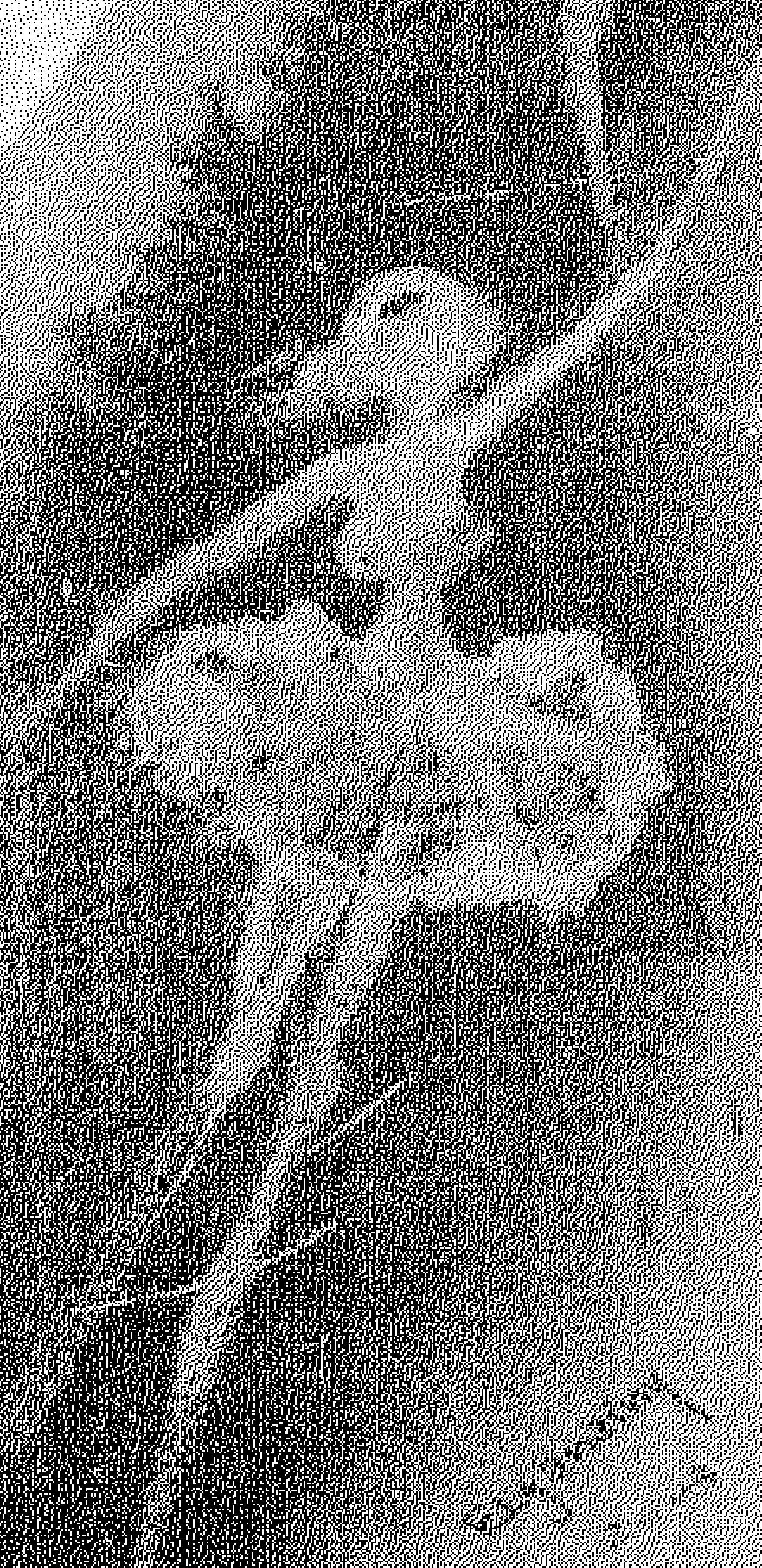
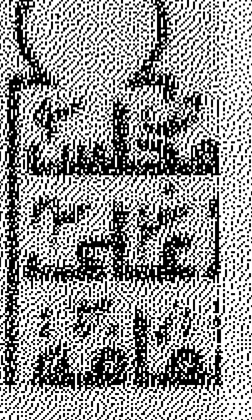
د. منى حلمى

حبيبتى التى كانت

مجموعة قصص

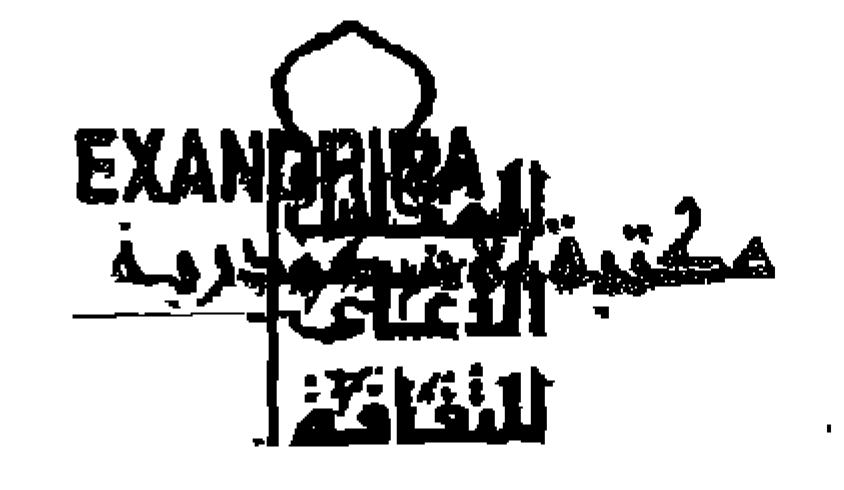




حبيبتى التى كانت

قصص

د. منى حلمى



المجلس الأعلى للثقافة

اسم الكتاب : حبيبتى التى كانت

اسم المؤلف : د . منى حلمى

الطبعة : الأولى – القاهرة ٢٠٠٣ م

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس : ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St, Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396   Fax: 7358084.

أهـــــداء

إلى كل المستحيلات

التى تصبح ممكنة

إذ تمسها الكلمات

إلى كل المستحيلات التى تبقى غير ممكنة

حتى بعد أن تمسها الكلمات

* * *

إلى سؤال

أسأله كل يوم

وليس له جواب

ماذا أفعل هنا

فى هذا العالم ؟

الذى لاتقنعنى قناعاته

ولا أؤمن بـ اشتهاءاته

ولا أجيد الرقص على ايقاعاته

* * *

إلى رجولة قلمى

وحدها أشتهيها

وحدها ترضينى

عن رجولة الرجال أجمعين

* * *

إلى أرض

أحلم بالسفر إليها

ليس فيها أطفال

ليس فيها مؤسسات

ليس فيه ميكرفونات

فقط " البحر "

و" قهوة " جيدة الصنع

مذاق العدل

وعبير الحريات

* * *

إلى النساء والرجال

الذين يؤمنون أن

الحب

سمو

وأدب

وحضارة

يحبون فى كل وقت

فى كل يوم

فى كل عمر

لا يبالون بالإدانة

وقذف الحجارة

إلى النساء والرجال

الذين يؤمنون أن

العشق هو أجمل الخيل

ورغم جميع الحواجز

يربح دائمًا السباق

وأن العشق ليس انحلالاً أو قلة أدب

العشق هو الفضيلة .. العشق سيد الأخلاق

رَجُـــــلٌ !

سحقًا لجميع النساء .

لا أدرى لماذا ابتلانا الله عظمت قدرته ، بذلك الكائن المخلوق من ضلع معوج ، اسمه " المرأة " ؟

نحن الرجال ، كم كنا ضحايا الأكاذيب ، والإفتراءات . قالوا عنا ، أننا الجنس الخشن ، القاسى ، الكاذب ، المراوغ ، الفاسد ، الشرير ، الأنانى ، الجاحد ، المتآمر ، المتسلط ، الخائن ، المدمر . لا توجد تهمة فى التاريخ القديم والحديث ، إلا ، وألصقت بنا نحن الرجال . ويعلم الله عظمت قدرته ، أننا أبرياء مَنْ يردد هذا الكلام ، أو يصدقه ، لم يعرف امرأة فى حياته .

إن شرور رجال الدنيا مجتمعين ، الأحياء منهم والأموات ، شىء لا يُذكر ، إذا قورنت بالشر الكامن ، فى قلب امرأة واحدة .

امرأة واحدة ، صغيرة السن والتجربة ، هزيلة العلم والثقافة ، لا أصل لها ، تكفى لأن تفقد رجلاً وقورًا ، مجربًا ، عالمًا ، ابن الأصول والحسب والنسب ، عقله وكرامته .

امرأة واحدة ناقصة العقل ، تكفى لأن تهز عرش أذكى وأعتى الرجال . يتباهون أمام الناس بالقوة والمال ، والجبروت . وبعيدًا عن الأعين تحت قدميها ينحنون .

أكثر الرجال فطنة ، ومراوغة ، لا يستطيع أن يأخذ من المرأة أى شىء ، إلا بإرادتها ، ورضاها . وامرأة غبية ، بلهاء ، بإمكانها الإيقاع بأقدر الرجال .

ينحرف الرجل ، يسرق ، ينهب ، يقتل من أجل السُلطة . يفعل ذلك بتحريض من امرأة ، أو لإرضاء امرأة يعريد فيها النهم للفلوس ، والتباهى ، والنفوذ .

تستطيع المرأة أن تعيش بدون رجل . لكن الرجل ، بدون امرأة تؤكله ، وتشربه ، وتخدمه ، وترعاه " يتبهدل " ، ويضيع .

المرأة ؛ طويلة الأظافر ، طويلة اللسان ، طويلة الحيلة ، طويلة العمر . والرجل ، قصير الأظافر ، قصير اللسان ، قصير الحيلة ، قصير العمر .

تدمر النساء الرجال ؛ وتفسدهم ، ثم يقولون : " المرأة صانعة الرجال " ، ولم لا ؟ مَنْ يصنع الشىء ، يملك وحده سر تدميره .

نحن الرجال . . . ابتلانا الله عظمت قدرته ، بالكائن اللعين اسمه " المرأة " . . ونحن الجنس المسالم ، الواضح ، والمتواضع ، الوديع . . لاحول لنا ولا قوة ، إلا مظاهر بطولة ، خادعة ، مزيفة ، نحرص عليها ، لإخفاء الحقيقة .

سحقًا لجميع النساء .

أقولها فى هذيان ، وجسدى ينتفض بالأنين المكتوم .

سحقًا لجميع النساء .

أقولها ، وروحى شظايا مبعثرة فى أرجاء الكون .

سحقًا لجميع النساء .

أقولها ، بعد أن أحببتها . آه أحببتها . . وكم من المرارة أبتلعها ، وأنا أعترف فى لحظة ضيعها الزمان ، أننى – وأنا الرجل المحصن ضد إغراءات النساء ، ذو الوقار ، والحكمة ، والكبرياء – أعشق حتى الفناء ، تلك المرأة الملعونة ، آكلة فى جحود ولا مبالاة ، قلوب الرجال .

عشت عمرى ، أزهو بأننى لا أقع فى الحب . الحب ؟ ماذا يعنى ؟ مجرد كلمة متحضرة ، يخفى بها البشر عدم تحضرهم . لم أكن فى حاجة للتخفى ، ولم يكن يهمنى ، أن أوصف بالتحضر . الحب ؟ ماذا يعنى الحب ؟ ضعف ، وقيد ، وأنا لا أسمح لامرأة أن تضعفنى ، أو تنال من حريتى . الحب وهم كبير ، تسقيه لنا الأغنيات المريضة والأفلام الرديئة .

فى علاقاتى النسائية ، كنت واضحًا ، مباشرًا . أحتاج المرأة للتسلية ، وتمضية الوقت ، دون التزامات ، دون إشتراطات ، دون تساؤلات ، ودون رومانسية . أنا " المايسترو " ، الأوحد ، يحرك

النغمات ، يحدد الإيقاع . فى هيبة ، وإنبهار ، يُنصت له الجميع ، وبحركة صغيرة ، واحدة ، من يديه يُسدل الستار .

أحببتــها . . .

انقضت على أيامى ، لا أدرى من أين . . . شاء الله عظمت قدرته ، أن تجيء نهايتى على يد امرأة ، زهدت الرجال .

لم يكن اختيارى أن أحبها . كيف لرجل عاقل ، ناضج ، أن يختار التوغل فى أرض ممتلئة بالألغام ؟ ؟ كيف لرجل عاقل ، ناضج ، أن يختار الإستنزاف فى حرب ، لا تمده بالسلاح ، لا تخبره مَنْ العدو ، ومتى عليه الهروب ، ومتى عليه الإستسلام ؟ ؟

كان اختيار الله عظمت قدرته، أن أتذوق معنى الحب لأول ، ولآخر مرة ، مع امرأة فقدت شهيتها للحب ، وأن تسكر عواطفى مع امرأة ، لا تعرف ظمأ العاطفة .

يعاقبنى الله عظمت قدرته ، على إثم لا أتذكر اقترافه . مُسير ، مسلوب الإرادة ، مغيب العقل ، مأخوذ بصوتها ، مفتون بحركاتها ، أتمنى لو كنت الهواء الداخل إلى صدرها ، أو شيئًا مهملاً من الأشياء التى تلمسها . أو ليتنى أغنية من الأغنيات التى تدندن بها ، لأرتمى على شفتيها . سحرتنى تلك المرأة ، والساحرات لا قلوب لهن .

امرأة لا قلب لها ، كانت لعنتى ، وكانت بركتى ، أدبتنى ، روضتنى ، علمتنى الصبر ، سخرت من انتصاراتى النسائية . .

أخذت بثأر كل امرأة راحت ضحيتى . . كسرت عنادى . . أذلت رجولتى . . حطمت كبريائى .

قبل تاريخى معها، كنت المحامى الشهير ، ذائع الصيت ، واللسان الفصيح ، يقصدنى الناس فى القضايا المعقدة التى يرفضها زملائى المحامون . منذ صغرى ، وأبى يعدنى لمهنة المحاماة ، والبحث عن العدالة . هو الآخر ، كان محاميًا بارع الحجة ، علمنى ، دربنى ، حتى أصبح القانون لعبتى . لم أخسر قضية واحدة فى حياتى . مذكرات دفاعى ، لم تكن مجرد المنطق السديد ، أو التطبيق المبدع لبنود القانون ، كانت شعرًا يطرب له الجميع .

بعد تاريخى معها ، فقدت القدرة على التركيز ، تلعثمت مرافعاتى القانونية تحولت من الشعر إلى النثر الردىء . هزمتنى أبسط القضايا . خسرت سمعتى ، ومهنتى ، وأبى .

من أين لى بالقدرة على التركيز ، وتلك المرأة تمتص كل طاقاتى ؟ كيف أفكر فى قضايا الناس ، وقد أصبحت تلك الزاهدة فى الرجال قضيتى الوحيدة ؟

لم أعد أبالى بأى شىء ، على الأخص بالنجاح فى عملى . ماذا يفيد أن أكسب قضايا الآخرين ، وأنا عاجز عن أن أكسب قضية عمرى ؟ كيف أتقدم للبحث عن العدالة ، ولا أستطيع رفع الظلم عن قلبى ؟

كان شعارى المعلق على لافتة ذهبية : " القضايا الخاسرة هى الأحق بالتبنى " . . أدرك أن تلك الزاهدة فى الرجال ، قضية خاسرة . وكلما تأكدت أكثر من خسارتى ، كلما ازداد تورطى ، وتشبثى بها .

أصبحت مصدرًا للسخرية ، وللشفقة من الجميع . كشف لى هذا عن التناقض ، والكذب ، والزيف ، الذى نعيشه . نصحو ، وننام على أغنيات العشق والغرام ، نبالغ فى الحديث عن ضرورة الحب ، وأهمية الحب ، وسحر الحب . نقول الحب هو الحياة . وإذا توقفت حياة إنسان ، أو تعثرت بسبب الحب ، نسخر منه ، ونشفق عليه .

كنت أزهو بالتدهور الذى أصاب حياتى . إذا كان الحب هو الحياة حقًا كما نردد ، فهو لا يقبل ثمنا أقل من حياتنا ، فداءً له .

هاتفتنى بالأمس . سألتنى : " ماذا ستفعل الليلة ؟ " قلت : "لماذا تسألينى ، وأنتِ تعرفين ، إننى لا أفعل شيئًا سوى انتظارك ؟ " .

تضحك ضحكتها المنتشية بلذة الانتصار ، على رجل كان يومًا شديد الجبروت . ليتنى كنت شاعرًا ، أو أديبًا ، لأحول هزيمتى إلى قصة أو قصيدة ، لكننى لا أبدع إلا فى حبها .

لقائى معها يوترنى . . أعصابى كلها مشدودة ، مترقبة مرور

الوقت لأراها . أعرف مقدمًا نهاية اللقاء ، ومع ذلك ، كان عندى أمل . أمل فى أى شيء ؟ لا أ عرف .

ليلة الأمس ، مثل كل ليلة مضت . أدعو الله عظمت قدرته ، أن يكون عونًا لى على هذه المرأة التى تسحقنى . ليلة واحدة ، يمنحنى الله عظمت قدرته ، الحياد ، أو اللامبالاة ، أو حتى فقدان الذاكرة .

ليلة الأمس ، مثل كل ليلة مضت . أتأنق ، أتعطر ، أرتدى ما يجعلنى أبدو أكثر وسامة ، ورشاقة ، أستغرب أمرى . فأنا أدرك سيناريو الموت الذى سوف تكتبه هى ، وأنا سوف أمثله ببراعة . فى كل مرة أذهب إليها ، أقول لنفسى يالك من مسكين ، أحمق .. تتأنق ، وتتعطر ، وتشتاق ، لامرأة شبعت من تأنق ، وتعطر ، واشتياق الرجال . يالك من مسكين ، أحمق ، حتى تلفك فرحة طاغية ، وأنت موقن أنك إلى حتفك ذاهب ، ليلة أخرى معها .

ليلة أخرى من لعبة المراوغة ، تمارسها معى . تخطط وتلعب بمهارة فائقة ، كأنها عاشت عمرها ، تتدرب لإتقان هذه اللعبة . عرفت كيف تبقينى مشدودًا على الخط الفاصل بين الصداقة والحب . ليست تقنع بالصداقة ، ولا هى بالحب تسمح . حين أخرس صوت عواطفى ، أقتل حبها ، وأرتدى قناع الصديق المزيف ، لا يعجبها الحال .

تنظر لى فى ابتسامة ماكرة وتقول : " صداقة ؟ أنحن أصدقاء ؟ صداقة إيه " .. ثم تفعل شيئًا ، أو تقول شيئًا ، لا يصدر إلا من امرأة عاشقة .

أخلع قناع الصداقة المزيف ، وأبدأ دور الحبيب ، لا يعجبها الحال . بشراسة تصدنى ، قائلة : " حب ؟ حب إيه ؟ مافيش حاجة إسمها حب .. قلبى مات منذ زمن ، لن تنجح فى إعادته للحياة .. حاول قبلك رجال كثيرون ، وفشلوا .. اترك قلبى فى حاله . " وأحياناً ، تنفجر كالبركان المحموم ، تطيح بكل شىء دون سبب . لا تريد الحب .. لا تريد الصداقة .. لا تريد أن تسمع صوتى أو أن ترانى .. لا تريد الحياة ، ولا تريد الموت . هربت كثيرًا من هذا الجنون ، وفى كل مرة متلهفًا أعود .

كل هذا يجىء بخاطرى . أطرده سريعًا .. لاشىء يهم الليلة ، سوى أننى سأراها .. سأسمع صوتها .. سأشم عطرها .. لا شىء يهم الليلة ، سوى أننى مطمئن أنها معى ، وأننى معها ، على الأقل لمدة هذا المساء . علمتنى ألا أفكر ، إلا فى اللحظة التى تجمعنى بها " هنا والآن " .. هذه فلسفتى معها ، أن كنت أود أن أحيا . لا ماضى ، ولا مستقبل يشغلنى . والحاضر ، هى التى تضع شروطه ، وقواعده .

أقود سيارتى .. الطريق إليها مهجور ، معتم كقلبها . لم أحصد من هذا الطريق إلا اللوعة ، والمرارة . لكننى أدمنت المشى فيه ، كما أدمنت عذابى معها . " إدمان " ... هذا هو التشخيص السليم الدقيق لحالى معها . أدمنت تلك المرأة . دخلت دمى ، وانتهى الأمر . لا شىء يفسر ، هذا الجنون الذى أعيشه معها ، إلا أننى فى حالة مستعصية من الإدمان . لا شىء ، يمكن أن

يجعلنى أحب ما تفعله بى ، ومع ذلك لا أستطيع الحياة ، بدون ما تفعله بى ، إلا أنها قد اختلطت بدمى . ومَنْ التى فى دمى ؟ امرأة فى استغناء عن الرجال .

ارتحت قليلاً عندما اهتديت إلى تشخيص حالتى على أنها "إدمان" . على الأقل ، يحفظ لى بعض ماء الوجه ، أنا مدمن . وليس على المدمن أى حرج . فهو لا يُعاتب ، ولا يُسأل .

كل ما يحق له ، هو أن ندعو الله عظمت قدرته ، أن يمن عليه بالشفاء العاجل . هذا إذا كان هناك أمل لأن يشفى . الشفاء ؟ ! أعوذ بالله . مَنْ قال أننى أريد الشفاء ؟

أحيانًا أفكر ، فى محاولة يائسة لتعزية نفسى ، إنها ربما تكون هى الأخرى ، قد أدمنت تعذيبى . فالصياد والفريسة ، كلاهما يحتاج الآخر . والجريمة تحتاج القتيل مثلما تحتاج القاتل .

لكن أكبر العزاء ، كان يأتينى من " فرانك سيناترا " ... أروع ما غنى . أغنية تقول " أنا أحمق لأننى أريدك " .. فرانك سيناترا ، بـ جلالة قدره ، معبود النساء ، يغنى لامرأة : أنا أحمق لأننى أريدك " .. ماذا أريد أكثر من هذا ، لأبقى على قيد الحياة ؟

استقبلتنى بابتسامة لم أكشف أبدًا سرها. جلست بجانبى .. سألتنى : " أين اختفيت الأيام الماضية ؟ " .

قلت : " أليس هذا ما تريدين .. أن أختفى ؟ بحنان لا أخطئ رائحته المخادعة ، تناولنى الكأس المثلج .

قالت : " لن تعرف أبدًا ماذا أريد .. أسرارى هى ملكى وحدى .. " .

قلت : " بل أعرف .. لكن المشكلة ، أن المعرفة لا تفتح أيًا من أبوابك المغلقة " .

تأخذ رشفة من الكأس المثلج ... أبتلع فى صمت لاذع المرارة أنوثتها المحتلة كيانى .

تقول " يا لك من رجل مغرور .. أنت لا تعرفنى ، أنت لا تعرف شيئًا . لم يعرفنى أحد من الرجال قبلك . أعترف أنك أكثرهم ذكاءً وفطنة . لكن حين يأتى الأمر إلى معرفتى ، والتنبؤ بتصرفاتى ، يتساوى الرجال ، الأذكياء منهم والأغبياء . أعرف أنك رجل مجرب . لكنك معى ، لا حيلة لك ، سوى أن تبدأ من أول السطر " .

قلت : " أول السطر .. منتصف السطر .. آخر السطر .. المهم أن تعطينى إشارة البدء .. أطلقى سراحى .. إلى متى سنظل هكذا فى هذا المأزق . لسنا نستطيع التراجع ، وليس بإمكاننا أن نكمل الطريق ؟ إلى متى سنظل معلقين فى الهواء ، لسنا بالأرض نرضى ، وليس فى وسعنا السماء ؟ إلى متى تتصدقين على قلبى بكلمات ، نصفها كاذب ، والنصف الآخر ميت ؟ إلى متى لانبدأ ، ولا ننتهى ؟ " .

تسألنى : " ماذا تريد ؟ ما الذى ينقصك ؟ ألا يكفيك أنك الرجل الوحيد فى حياتى ؟

أقول : " الرجل الوحيد فى حياتك ؟ الرجل ؟ تذبحين رجولتى ، وتقولين الرجل ؟ " .

تقول : " أنت الوحيد الذى احترمته من بين كل الرجال الذين مروا بحياتى " .

أصرخ : " مش عايز احترام ، مللت الاحترام ، كرهته . أشبعتينى احترامًا إلى حد التخمة . لو تعفينى منه بعض الوقت .. لو تسحبى احترامك قليلاً ... لو تمنحينى بعض الحب ، بدلا من هذا الاحترام ، إحترام ؟ مَنْ قال لكِ أننى أريد أن أكون رجلاً محترمًا ..... هو الاحترام بالعافية " .

تشعل سيجارة ، تقدمها لى ...

هى ، هى ، لا تتغير . تأخذ صوابى ، وكبريائى ، وراحة النوم ، ولا تستطيع أن تقدم لى شيئًا ، إلا سيجارة مشتعلة . كم هى متفردة ، مبدعة ، فى إشعال السجائر ، وإطفاء الرغبات . وأنا ، أنا ، لا أتغير ، عاجز عن الفرح إلا معها .

" الفرحة " ... هى الورقة الرابحة التى تلعب بها .. تعرف أن كل أفراح العالم ، لاتهمنى . تعرف أننى رجل لديه مناعة يُحسد عليها ، ضد كل ما يُفرح البشر . تعرف أننى لا أفرح إلا بها ، ومعها . " الفرحة " معها ، لا أعرف كيف أصفها . شىء أشبه بالحلم ،

مع إدراكي أنني لا أحلم . أعانق كل ما في الكون ، ألمس خفايا الوجود ، أحلق في ملكوت تحرر من قيود الزمان ، والمكان . "الفرحة" بها ، ومعها ، تمدني بـ قوة تمكنني من قهر أي شيء . لاشيء يستطيع أن يكسرني ، أو يهزمني ، أو ينال من ابتهاجي وتفاؤلي ، طالما هي تزودني بـ " الفرح " . شيء غريب ، كيف المرأة التي تكسرني وتضعفني ، تمنحني الشيء الذي يقويني ؟ أرتجف رعبًا أنني لا أفرح ، إلا مع ساحرة لا قلب لها .

" الفرحة " معها ، امرأة أخرى أذهب إلى لقياها ، حينما أكون أنا وهي على موعد . امرأة أخرى تلدها من داخلها ، لها ملامحها ، وصوتها ، وعبيرها . أحيانًا ، أقول لها ، اذهبي أنتِ لو شئت ، واتركيني أكمل السهر ، مع تلك المرأة الأخرى . كانت تتركني . وكنت أخونها مع " فرحتي " بها . تكررت خيانتي ، إلى درجة جعلتني أتساءل ، وأتشكك .. هل وقعت في غرامها هي ، أم وقعت في غرام " الفرحة " التي تمدني بها ؟ إذا كان الأمر هكذا ، فأنا الآخر ألاعبها ، ولست أقل مراوغة منها . أتركها تعتقد أنني أحبها هي ، في حين أنني لا أحب إلا " الفرحة " التي أحسها معها .

أحيانًا يشاء الله ، عظمت قدرته (ربما كان يختبرني) أن تشاغلني فرحة ليست منها ، أو معها سريعًا أطردها، وأحرمها على نفسي . الفرح دونها خيانة ، لست أحتملها . وأندهش ، لم أبذل جهدًا وأطرد الفرحة ؟ طالما أن الفرح دونها ، يفقد قدرته على أن يُفرحني . كل ليلة أدعو الله عظمت قدرته ، أن يديم عليّ نعمته ، وأظل عاجزًا عن الفرح دونها .

أتأملها جيدًا . ماذا فى هذه الملامح ، يشدنى ؟ ماذا فى هذا المرأة ، يشل مقاومتى ؟ إنها حتى لا تتفق معى فى طريقة التفكير ، ونمط الحياة . فى ومضة سريعة ، أشعر بالامتنان لها لولاها ما تألمت إلى حد النزف . كيف عشت سنوات طويلة مرفهًا ، بدون هذا الألم اللذيد ؟ ألم هدانى إلى حقيقتى ، وإلى مغزى الحياة .

أتأملها جيدًا .. أتذكر تاريخى معها .. لا أجد سببًا واحدًا يدفعنى لحبها، والتمسك بها . كل الأسباب التى أعرفها ، هى أسباب لعدم الحب ، لا للحب ، كل تاريخى معها، كان لابد وأن يجعلنى أفر هاربًا . لكننى منجذب إليها بقوة قاهرة عصية الفهم . حول مدارها ، أطوف هائمًا ، مشردًا . زادى وليمة الجنون التى تعدها، ومسكنى لحظة من رضاها . إنها مشيئة الله ، عظمت قدرته ... ولست أستطيع سوى الامتثال لحكمته الغامضة .

أسألها : " ما مصيرى معكِ الليلة ؟ على أى شىء تنوين الليلة ؟ لا تترددى .. لا تأخذك بى رحمة ، أو شفقة .. هيا قررى ، أى قناع تريدين الليلة ؟ أنا جاهز لكل الأقنعة . الليلة ، دمى يحتاج إلى" جرعة أشد .. احسمى أمرك سريعًا فالوقت يمر ، ودمى يستغيث !!

جربت أن أعرف نساء أخريات ، فشلت .

نساء .. نساء إيه ؟ لا أريد نساء .. سحقًا لهن جميعًا .. لاشىء عندهن ، يجذبنى .. لا الجمال ، ولا الحنان ، ولا الرقة ، ولا الوفاء ، ولا الشهرة ، ولا الفلوس . لا أريد نساء . لا أريد إلا تلك التى لا تريد أحدًا .

فاجأتني أنها تغار ، وأن غيرتها مدمرة ، يمكنها أن تقتلني ، لو أنني تركتها ، وذهبت لامرأة غيرها . هكذا تصل باللعبة إلى درجة مرعبة من البراعة ، والإتقان .

قلت لها : " اطمئني واهدأي بالاً .. لقد خربتيني ، لم أعد أصلح لأية امرأة .. سواكِ " .

لابد أن يكون كل شيء خطأ ، في هذه العلاقة . خطأ في استمرارها .. خطأ في بدايتها .. ولكن ليدلني إنسان على صواب واحد ، في هذا العالم . كل شيء غيرمنطقي مع هذا المرأة . لكن مَنْ قال أن الحياة نفسها لها منطق ؟ ومَنْ يبحث عن المنطق ، والصواب ، لن يحس بجمال وسحر الحياة .

مَنْ كان منكم بلا إدمان ما ، فليحكم على إدماني لتلك المرأة ..

هذا الرجل يدمن نجمات السينما .. رجل آخر ، يدمن السجائر ، والقهوة .. وكرة القدم ، هذا رجل يدمن فوازير ومسلسلات رمضان ، آخر يدمن الفلوس ، وشاشة الانترنت ، ورجل آخر ، يدمن مشروبًا يذهب العقل .

" هايل .. هايل جدًا .. تكلمت اليوم بصراحة ، وسلاسة ، وغضب أكثر . لكنك مازلت تخفي الكثير أريد منك في الجلسة القادمة ، أن تحكي المزيد من التفاصيل ، وأدق الأحاسيس .. كرر الدواء ، وأراك الثلاثاء القادم ، الثامنة مساءً " .

حبيبتى التى كانت

بجانب مثواكى الأخير ، أجلس شاردًا أدخن سيجارتى .

ما بين غفوة المساء ، وإشراقة النهار ، ذهبت حبيبتى ، صعدت روحها إلى بارئها فى السماء .

وهبط قلبى إلى أرض الهذيان .

كيف تتجرئين على الرحيل ، وأنا أحمل لكِ كل ما يطيل العمر ؟

كيف تزهدين العيش ، بعد أن أيقظتى قلبى من سباته العنيد ؟

هكذا فى لحظة تذهبين ؟ لا أصدق أننى أزور حفنة من التراب ، كانت بالأمس حبيبتى . لا أعقل أن مَنْ منحتنى مذاق الأشياء ، أصبحت كمية من العدم .

ترى أتشعرين بوجودى ؟ هل تحسين بالدموع المتجمدة فى عيونى " الأموات أكثر شفافية من الأحياء " .. هكذا كنتِ ترددين لى دائمًا .

أشعل سيجارة أخرى ، هل تذكرين ؟ كنت أحب أن تشعلى لى سيجارتى ، ودائمًا كنتِ تنسين ، وتتركينى لحظات أنتظر من بين يديك النار !

نعم .. أحببتك .. أيتها المرأة المسافرة فى ليل طويل .. أحببتك أيتها المرأة التى لا يمن بها القدر إلا مرة واحدة .

أحببت تفردك الذى كان يفزعنى .. أحببت جنونك الذى لم أفهمه .. كم عذبنى حبك ، لم أغفر لكِ أبدًا أنكِ جعلتينى أحب ، وأعشق ، وأحس بالغيرة ، وأنا الرجل المحصن ضد هذه المشاعر .. الحب مرض ، هكذا كانت قناعتى ، احتفظت بكامل صحتى سنوات طويلة . عرفت الكثير من النساء ، لا واحدة منهم غيرت قناعتى ، لا واحدة منهم حرضت الرجل العاشق داخلى على الخروج من عزلته .. إلا أنتِ .. بعد أن أحببتك ، مازلت أرى الحب مرض ، لكنه المرض اللذيد الذى يثبت أننى سليم العقل، والجسد والروح . أبدًا لن أغفر لكِ .

أنا والذكريات ومثواكى الأخير .. كيف تتركينى وحدى ، بعد أن تعلمت الحياة من جديد على يديك ؟ هذا شىء آخر ، لن أغفره لكِ ، أيكون رحيلك نوعًا من الانتقام ؟

أشعل سيجارة أخرى ، فى مرارة أبتلع سخرية القدر . أنا وأنتِ ، كنا دائمى الشجار ، وسوء الفهم . طالت بيننا أيام

الخصام ، كأننا نملك العمر كله . هل كانت متعة اللقاء أكثر مما نحتمل ، فارتضينا الفراق ، والخصام ؟ هل استهوتنا لعبة المراوغة ؟ كنتِ تقولين لى " ذلك الطفل المشاغب داخلك يروقنى اللعب معه " . لعبنا حتى قتلتنا اللعبة . أطفئ سيجارتى .. أنثر زهورًا صفراء فوق مثواكى الأخير ، وأشتهى عبيرك الغائب ، هل تذكرين آخر مرة جئتنِى فيها بالزهور ؟ كان أطول خصام بيننا . شهور مرت ، وكل منا يصر على كبرياء أحمق . قطعنا كل الأشياء بيننا ، الهاتف والأصدقاء ، وأمسيات السهر . زعمتِ لمَنْ يسألك عنى ، أن كل شىء على ما يرام ، وادعيتُ لمن يسألنى عنكِ ، أننى أحب امرأة أخرى . كل منا أتقن دوره ببراعة . يبدو أن مرات الخصام المتكررة منحتنا التدريب اللازم على الكذب . وكنت كلما تماديت فى الكذب ، أدرك أننى أكثر صدقًا . مع رجل فى مثل عنادى ، وامرأة فى مثل مكابرتك ، كان لابد من أن يتدخل القدر ، ويرتب صدفة اللقاء . تكلم الصمت .. وانتصفت المسافة بيننا ، أشجان وعتاب ، وفرحة مترددة الإيقاع . فى المساء ، جئتنِى بالزهور قائلة : " فى حديث الورد والزهور ، تسكن كل الكلمات " .

قلتُ : " عمر الورد قصير كأيام الوصال بيننا " وكان ردكِ " أجمل الحب أقصره عمرًا " ، وأحلى الشاعر ما يمسنا ومضات خاطفة " ، متعبة كنتِ أيتها المرأة الراقدة تحت التراب . كان بإمكانى أن أبحث عن امرأة أخرى تريحنى . لم أكن أريد الراحة .

كنت أريدك أنت . التعب معكِ ، كان يصلنى بـأسرار عصية الكشف .
أسمع فى صوتك أنشودة الكون . مجرد وجودِك معى تحت سماء
واحدة ، كاف جدًا لتعويض مسراتى المبتورة .

شىء ما كان يتردد فى أعماقى " إياك أن تترك هذه المرأة" ..
وحين أتساءل عن السبب ، تسكت الأعماق . ماذا أنا فاعل الآن ،
أيتهـا المـرأة الخائنة ؟ نعم .. رحيلك خيانة ، ألم تعدينى ذات
ليلة بالوفـاء ؟ يأتينى صوتك من تحت التراب : " لستُ بـخائنة
ألا يكفيك ما عشناه ؟ أيام قليلة لكنها نادرة الحدوث بين امرأة
ورجل ، لاتكن جشع العواطف ، خذ من الدنيا ما تمنحك إياه فى
سعادة وامتنان ، لا تتحسر على شىء لم تأخذه" .

جشع العواطف أنا ؟ لم أكن يومًا . لم أتلهف معكِ للاكتمال .
على العكس ، كنت أهرب منه ، فأنا أدرك أن الثمرة حين تكتمل
تسقط ، وأن البدر حين يكتمل يبدأ فى النقصان . يأتينى صوتِك
خافتاً : " أنا أيضًا كنت أقاوم فك الشفرات ، أدرك أنه عندما
يصبح كل شىء مباحًا لليقين ، يفتر خفقان القلب ، تحملت
الحرمان منك ، عن لحظة فتور أردت أن يكون كل لقاء معك ، هو
الأول فى نضارته ، وطزاجة دهشته ، تصور ، الآن فقط ،
أكتشف أن هذا أحلى ما جمعنا ! " الآن فقط تكتشفين أحلى ما
كان بيننا بعد أن رقدتِ وحيدة فى التراب ؟ أتريدين أن أفقد
البقية الباقية من صوابى ؟

لم تصدقيني ، حين كنت أقول أنكِ ، فرحتي الوحيدة ، بعد أن أدمنت الأحزان . بعد رحيلك اكتشفت أنكِ مذاق كل الأشياء ، وليس فقط الفرحة . حتى مذاق الحزن فقدته بعدك . فالحزن له سحره . أشعر الآن باللاجدوى ، واللامعنى . يعلو صوتك ساخرًا " حقًا أهذه مشاعرك ؟ ألم تقل لى أن حبى قيد عليك ؟ سيحررك رحيلى ، من هذا القيد " . نعم .. كان حبكِ قيدًا ، أحيانًا القيد الذى يخرس صوتى .. وأحيانًا القيد الذى يطلقنى عصفورًا ، يشدو فى كل الأجواء .. لكننى فى كل الأحوال ، كنت مبهورًا بـ قدرتك على "أسرى " ، وإبقائى داخل حدودك .. ثم قولى لى ، ما فائدة تحررى الآن ؟

ما معنى حريتى إذا لم أمارسها معكِ أنتِ ؟ ، ماذا أفعل بانطلاقى ، وأنتِ ياحبيبة عمرى نزيلة التراب ؟ حبيبتى . . حبيبة عمرى ، أنت حريتى . أستعيد سهرتنا الأخيرة ؟ أشعر بالدوار . . أنهكتنى الذكريات ، لكننى لا أملك سواها عزاء . سهرتنا الأخيرة ؟ أحقًا لن نسهر معا مرة أخرى ؟ تطلبين أن نذهب إلى المكان الذى جمعنا أول مرة . واندهشت ، كنتِ فى غاية الأناقة ، مكتملة العاطفة ، تنثرين فى المكان الرقة والحنان ، لم أركِ أبدًا بهذا الشكل من قبل . . يقاطعنى صوتِك من تحت التراب : " شىء ما أنبأنى ، أننى لن أراك مرة أخرى " . فى سهرتنا الأخيرة ، اكتشفت المرأة ، أخفيتها عنى سنوات . رغم طول انتظارى ، لم يخالجنى شك ، أن تلك المرأة الرائعة داخلك . لم أكن أعلم أن خروجها إلى

الدنيا معناه دخولك أنتِ إلى الصمت الأبدى .. لماذا لم تأخذينى معك ؟ الحياة بعدكِ أكثر مما أحتمل . بعد سهرتنا الأخيرة ، لم يعد هناك شىء أرغبه .

يأتينى صوتِك رقيقًا كعادته : " لا تجعل موتى يعطلك ، أو يحزنك ، أو يفقدك مذاق الأشياء . افرح واعشق من جديد ، سوف تجدنى فى كل امرأة تحبها ، سأكون معك وانت تحتفل بمواسم الزهور والمطر . ومعك وأنت تقاوم ليالى الوحدة والشجن ، طالما أننى فى قلبك ، فنحن دومًا على لقاء . صدقنى سوف يمنحك موتى حرية أكبر ، ويزودك بفهم أكثر للحب والحياة . زرنى يوم ميلادك ويوم ميلادى ، ويوم أن التقينا أول مرة . وزرنى وأنت تستقبل عامًا جديدًا .. سأكون فى انتظارك " .

أجر خطواتى بعيدًا عن مثواها الأخير . . ياويلى من الحياة بعدها .. عاشت دون جدوى ، تبحث عن لحظات من الحب والحنان . عاشت تعطى ، وتستحى الأخذ . أيها الموت الذى لا أعرفه .. كن حنونًا عليها .

بين رجلين

فى لحظة خارجة عن مدار الأرض والمنطق ، دخلت إلى مصيرى المعتم فى عينيه .

لاخبرة عـنـدى ولا دلـيـل ، فـى طـريـقـى الملـغـم بـالسـواد ، ورقصات الأشبـاح .

لا زاد معى ، ولا ماء ، ولا قطرة من كبرياء ، فى رحلة وعرة الدروب ، خاصمها الشجر ، هجرتها متعة الترحال ، وسحر السفر .

على تنهيدة غجرية الإيقاع ، استيقظت ذات صباح ، على شدو قلبى ، " أحب هذا الرجل " .

وقف الجميع ضدى .

انضمت نفسى إلى جبهة الناس . عاتبتنى قائلة : " كيف أهون عليكِ إلى هذه الدرجة ؟ كلهم معهم حق . أترميننى فى هاوية لاقرار لها ؟

أنا وحدى بقلبى ، فى معركة شرسة غير متكافئة ، ضد مدار الأرض ، والمنطق .

أنا وحدى بقلبى ، ضد كل الناس ، وضد نفسى .

أنت وحدى بقلبى ، أقف فى صفه ضد العالم .

أزهو بحماقتى ، ويطربنى إلى حد الانتشاء غبائى .

الأشياء كلها تنبئ أنى فى صفقة خاسرة . راهنت عليه بعمرى الباحث عن عنوان . لعبت كل أوراقى ، استخدمت كل فنونى . خذلنى وخسرت الرهان .

فى بدايات المساء يأتينى صوته عبر الهاتف : " أين أنتِ ؟ اتصلت مرات ولم أجدكِ . أحدث شىء لا أعرفه ؟ ما رأيكِ ، هل نسهر معا الليلة ؟ "

تغمرنى الفرحة ، فلا أسأله عن غرابة تصرفاته ، واختفائه أيامًا تعبت من حسابها . أخاف أن أعاتبه ، حتى لا يحسنى قيدًا على حريته ، أو عبئًا يثقل عواطفه .

موعدى معه ، يعيد إلى وجهى أحلى ملامحى . على موسيقى راقصة أرتدى أجمل أثوابى . أتعطر بأشواقى الجامحة إلى صحبته .

يلقانى مرحبًا ، فأحس أنه قسمتى ونصيبى من الرجال .

يصافح ارتعاشه يدى ، بحرارة تقول أننى المرأة التى طالما انتظرها ، وتمناها .

بحنان يفزعنى يسألنى : ماذا تشربين ؟

أقول : " أي شيء نقتسمه معا يروى ظمأى " .

نشرب معا ، حتى ندرك حكمة العشق ، وسر الكون .

في دهشة ، تتطفل نظرات الناس ، على مائدتنا المنزوية . تتساءل العيون ، كيف الفرحة بين رجل وامرأة ممكنة ، في زمن القبح والعداء ؟

تطول سهرتنا ، وتقصر المسافة بين اشتياقى وسحر عينيه .

يقصر آخر حاجز بيننا وبين الجنون .

يقترب أكثر ، ويقول : " ما أحلى الليلة . أنا وأنتِ والموسيقى ، وهذا المشروب الجميل . ماذا ينقصنا ؟ " .

أقول " ينقصنا الكثير والكثير " .

يسألنى في جرأة مرتبكة " أتعتقدين كذلك ؟ " .

قلت : " أجمل الأشياء تلك التى لم تحدث ؟ .

يأخذ رشفة متعجلة ويقول " : أخالفكِ الرأى . أجمل الأشياء ما عشناها . أما الأشياء التى لم تحدث . فلا تعنينى " .

يفاجئنى بكل رقة واشتياق : " أحبك وأنتِ تعرفين ذلك . وأنا أعرف أنك تبادلينى مشاعرك . لماذا سكوتى ؟ لماذا تتجاهلين الأمر ؟ أحبك منذ اللقاء الأول . كفانا ما ضاع من الوقت . لابد أن نفعل شيئًا تجاه هذا الحب الجارف . حبنا قدرنا ، ولا مفر من القدر " .

كلامه عن الحب ، يُعيد إلى قلبى دقاته المفقودة . الحنين المطل من عينيه ، يصالحنى على دنيا أدمنت عنادى . يحملنى صوته العذب إلى مدينة ، كل أهلها من العشاق . مدينة تشع بالخير ، والضياء ، نهارها شعر ، وليلها غناء .

قبله ، سمعت كلمة الحب كثيرًا . لكن " أحبك " منه ، أسمعها كأنها المرة الأولى . ينطق كل حرف ، بسخاء ، وعمق ، وشوق يذيب المحال ، ويفتح مسام العمر .

" أحبك " منه ، ليست كلمة ، وإنما عزف بارع على أوتارى المنسية ، فينهى الخصام الطويل بينى ، وبين أنشودتى المبعثرة فى الفضاء .

يكررها : " أحبك " فاكتشف أن الحب ، ليس إلا أنا و " هو " .

يحدث هذا ، فى سهرات المساء . أما الصباح ، فإنه قصة أخرى .. حين يمضى الليل إلى مثواه ، وتشرق شمس النهار ، يظهر رجل آخر . مَنْ هو ؟ ومن أين جاء ؟ لا أدرى .

مستحيل أن يكون هو الرجل نفسه ، الذى قضيت معه سهرتى بالأمس .

بعد كل سهرة ينتظرنى فى الصباح ، رجل لا أعرفه .

عبثًا ، أبحث عن ملامح ، الرجل الذى همس كلمات الحب ، ونطقت عيناه بالأشواق .

شيء ما ، يحدث له ، ما بين غفوة المساء ، وإشراقة النهار .
هل أنا المخطئة ، صدقت كلام الليل ، الذى تذيبه شمس النهار ؟

كرهت مجيء الليل . وأصبحت أخاف السهر معه ، رغم أنه فرحتي الوحيدة .

لا أحتمل أن أعرف رجلين ، كل منهما نقيض الآخر .

لست أدرى ، أى الرجلين هو ؟ أى الرجلين أصدق ؟

آخر شيء أحتاجه فى حياتى ، رجل يتذكرنى بالليل ، وفى الصباح ينسانى .

يا له من مأزق وقعت فيه امرأة ، تعشق النهار ، وتتألق مع نسمات الصباح .

يا للمفارقة الساخرة ، أنا المرأة حادة الذاكرة ، مع رجل بدون ذاكرة . المرأة " ابنة الشمس " ، مع رجل يخاصم النور .

وأسأله : " ألا تتذكر شيئًا من سهرة الأمس ؟ " .

يقول : " أحدث شيء غير عادى ؟ هل صدر منى ما أغضبك ؟ " .

قلت : " لا تشغل بالك . . لم يحدث شيء فى سهرة الأمس " .

مضت شهور ، وأنا فى علاقة مع رجلين . حاولت أن أقرب المسافة بينهما . . . حاولت أن أجمعهما معًا فى جلسة ود . لا جدوى . لا أدرى ماذا أفعل .

ممزقة بين رجلين ، أريد رجل المساء الذى يسمعنى أحلى الكلمات ، ويغمرنى بالحب والأشواق ، ماذا أفعل ، وتعاقب الليل ، والنهار ، حقيقة من حقائق الكون ؟ كيف لى أن أتشبث برجل المساء والسهر ، وأبقيه حتى خيوط النهار ؟ كيف أعقد الصلح بين الرجل الذى يحبنى ، وبين الضياء ، وزرقة السماء ؟

كم أهفو إلى كلمة " أحبك " منه ، ممتزجة بأشعة الشمس ، وتغريد الطيور .

أتيته مرة قائلة : " إذا أردت أن تقول لى كلامًا هامًا ، قله فى الصباح . يكفينا فى أمسيات السهر أن نقضى وقتًا سعيدًا ، لن آخذ أى شيء تفعله ، أو تقوله فى المساء ، مأخذ الجد" .

وكان رده " إذا كان هذا ما تطلبين ، أوافق " .

وتأتى أمسيات السهر ، بالقصة نفسها . فى المساء يحبنى ، يرعانى ، وتفيض مشاعره على روحى المتعطشة لقطرة حنان . وفى الصباح ، يلفظنى ، يتجاهلنى ، وتضن مشاعره بأبسط الكلام .

لو كان الأمر بيدى ، لأعلنت راية العصيان .

لو كان الأمر باختيارى ، لرفضت الرجلين معًا . رجل المساء ، ورجل النهار . لكنه قلبى الذى يجبرنى على البقاء معه .

قلبى الذى سأم الأحزان ، ومعه ذاق طعم الفرحة . فرحة ناقصة ، مجهضة ، لاتزورها الشمس . لكنها فرحتى الوحيدة .

إنها تلك الفرحة ، التى يملكها ضدى . إنها سلاحه الذى يشهره فى وجهى . فرحة لا يقدر عليها سواه . ويدرك جيدًا ، أننى أحتاج فرحتي معه . ولا أملك شيئًا ، إلا الإختفاء بعض الوقت ، وسريعًا إليه أعود .

لمن أنحاز ، لفرحتى أم لراحة بالى ؟ فى بداية المساء ، يأتينى صوته عبر الهاتف : أين أنتِ ؟ اتصلت مرات ولم أجدك مرات ؟ أحدث شيء لا أعرفه ؟ ما رأيك هل نسهر معًا الليلة ؟

مَنْ يلومنى ، لو استعدت أحلى ملامحى . على موسيقى راقصة ، ارتديت أجمل أثوابى ، تعطرت بأشواقى الجامحة إلى صحبته ، وسارعت إلى لقياه ؟ ؟ .

هزة الأرض موعدنا

لست أدرى ، ما هو سر الكون بيننا ؟

كل اللقاءات معك ، التى قلبت كيانى ، وأحرقت فى التفاتة عين ، كل رجال حياتى ، وأرجعتنى من حيث بدأت ، كلها حدثت فى توقيت هزات الأرض .

هزات الأرض ، نادرة الحدوث ، ومثلها ليالى رضائك عنى .

هزات الأرض ، مفاجئة ، مدمرة ، تطيح بكل شىء ، وبأى شىء ، ومثلها ليالى اشتهاء العشق لعناقنا .

هزات الأرض ، تفضل الخريف والشتاء ، ومثلها مواسم الوصال بين قلبينا .

هزات الأرض ، تعيد تشكيل الدنيا ، وكذلك فاعل أنت بجسدى وملامحى ، حين تمسنى يداك .

هزات الأرض ، لا يقدر على التصدى لها، إلا بناء ذو أساس متين ، تمامًا مثل تاريخنا فى الانتشاء ، والشجن .

هزات الأرض ، رعب ، لا يجدى معه حذر ، وكذلك الأمر حين تلتقى شفاهنا .

هزات الأرض ، عمرها قصير ، معدود ، وكذلك الجنون اللذيذ بيننا .

هزات الأرض ، إعلان غضب ، واحتجاج ، وتعب ، أصاب طبقات الأرض ، وكذلك تعلن طبقات روحى ، حين يطول فراقى عن زرقة عينيك .

هزات الأرض ، خبر فورى تنشره الجرائد ، والمجلات ، وكذلك أنا عن حبك أكتب ، ليقرأه على الملأ كل الناس .

ليلة الأمس ، كنت على يقين ، أننى سألقاك . لم يكن بيننا موعد ، ولِم حاجتى لترتيب لقاء ، والهزة الأرضية موعدنا ؟ جعلتنى أحب هزات الأرض ، وأنتظرها بشوق . بعد هزات الحنين ، والانتشاء ، والألم والأشجان ، تبدو هزة الأرض نسمة هواء .

قلت في نفسى ، لقد حدثت هزة أرضية بالأمس ، اليوم إذن سترانى وسأراك .

يمر الوقت ، وأنا وسط الناس ، أفتش عنك . لم تنتابني لحظة قلق واحدة . لِم القلق ، وقد التقينا مع كل الهزات الأرضية السابقة .

لم يتزعزع يقينى . إذا لم نلتق ، تكون هزة الأرض بالأمس ، وهما ، وخديعة . أما إذا كانت قد حدثت ، فأنا لا محالة ، سأنعم برؤياك .

وفجأة تماما مثل هزة الأرض ، ظهرت فى الأفق ، حركة متوهجة ، عنيفة ، سريعة ، مبهرة العنفوان ، معربدة الايقاع ، شهية الرعشات .

أخذت يدى بين يديك ، فسقطت في بئر عميق لا قرار له ، من اللذة .

أخذتنى كاملة ، حين أخذت يدى . فقل لى ، ألن تكون حماقة ، لو طلبت منك المزيد ؟

دار بيننا عتاب ، أحلى من كلمات الغزل .

على أطياف فتنتك ، تهت . أحاول أن ألملم ما تبعثر من كيانى الذى أنهكه ترحيبك الدافئ . أحاول أن أبدو وكأننى بخير . أحاول أن أكتم معزوفة البهجة ، تروح بيننا وتجىء . أحاول إبطال رعشتى . وكيف تنجح محاولاتى ، و " أنت " واقف معى ، أمامى ، حولى ، بجانبى ، تطلق – دون ترفق بأشواقى – نارك ، وحلو أسرارك ؟

مازالت يدى بين يديك ، تطفئ عروق الظمأ فى دمى . وكأنك عالم بحالى . تركتنى أنهل ، ولم تتعجل ارتوائى .

قلت لى ، وأنا فى يديك : " أشكرك على هديتكِ فى عيد ميلادى . مازلتِ الوحيدة التى تتذكر هذا التاريخ " .

قلت وعراك مع الظمأ يستغرقنى : دعك من الشكر ، وهذا الكلام ، وقل لى هل أعجبتك الهدية ؟ !

وإذا بكيانك كله يمتد ، نحوى ، ويختصر كل ما تكونه ، ويختصر كلمات اللغة ، فى كلمتين " جميلة مثلك " .

انتظـــارك !

" انتظارك " يحرك سحابات قلبى الساكنة ... يتمايل مطراً نبيلاً ، يعيد إلى وقارى سحره المحتجب ... تستعيد سماء الكون ، دلالها الأزرق .

" انتظارك " يهب تكرار الأيام دهشة ، فارقتنى منذ زمن . كيف عشت أيامى الماضية ، دون هذه القلق الممتع ، اسمه " انتظارك " ؟ كيف اعتقد أن كل شىء حولى ، على ما يرام ، دون هذه النشوة المحيرة ، اسمها " انتظارك " ؟

أنا أنتظرك ... للحياة ألف شمس تشرق على أحزانى ..

أنا أنتظرك ... أخطاء البشر كلها أغفرها .

أنا أنتظرك ... الصخب لم يعد يثير أعصابى .

أنا فى انتظارك ، أنا فى أجمل حالاتى .

أنا أنتظرك ، إذن أنا موجودة .

بعد ساعة ، لقاؤنا . ساعة من الزمان ، وتتبدد ملامح

الغياب الطويلة . رغم ما أبعدنى ، وما أبعدك ، كنت حاضرًا فى حياتى . ما إن تداعب زرقة عينيك ، ارتباك أيامى ، حتى تذوب المسافات بيننا .

رغم الفراق ، لا تصدق إلا اقترابى . كنت التقيك خلسة ، تحت ضوء القمر المتردد . تؤنس ذكرياتك ، تساؤلات المساء ، ويحزننى ، أنى لا أجيب .

رغم كل شيء يؤكد أنك فى عمرى ، حلم قصير ، أفقت منه قبل الأوان ، كنت تشاركنى تأملاتى ، على أنغام موسيقى "شوبان" ، التى جمعتنا لأول مرة .

هل تتذكر ، تلك الأمسية خرافية الفرحة ؟

بعد ساعة ، لقاؤنا .

أستطيع الآن ، أن أتخلى عن إحساسى ، بأن هناك مؤامرة كونية ضد لقائنا . منذ شهور ، ونحن نرتب لهذا الموعد . وأبدًا لم يحدث . دائمًا هناك شيء ما ، من حيث لا ندرى ، فى آخر لحظة ، يؤجل اللقاء المنتظر .

كنت واهمة . فها هو الكون ، يرسل عبر خيوط المساء ، مباركته العطرة . ها هو الكون ، يشدو على إيقاع لهفتى . كنت واهمة . ها هو الكون ، يعلن إنتماءه بلا قيد ، أو شرط ، إلى لآلئ الفيروز فى عينيك . بعد ساعة لقاؤنا.

كم أخاف ساعتى هذه ، كم أنا مترددة .أرجوك ، لا تلمنى على خوفى ، وترددى .

تعودت عليك ، وأنت حلم يمنحنى راحة يقظتى . لا أعرف ، كيف يكون الأمر ، وأنت حقيقة . فى الخيال ، أعرف كيف أتعامل معك . مَنْ يضمن لى أنى فى وجودك ، لن أرتبك وأتعثر ؟

وأنت بعيد ، ألهمتنى أعذب ما يكتب القلم ...

وأنت بعيد ، أفرحت قلبى المحصن ضد الفرح ...

وأنت بعيد ، أراك ، أجمل رجل ...

حين نقترب ، لا يمكن أن أسمح بالاقتراب

بعد ساعه لقاؤنا .

لا أعتقد أن بإمكانى المخاطرة . صدقنى ، أفضل البعاد ، حرصًا على سعادة القرب ، وإن كانت فى الذكرى ، وفى الخيال.

بعد ساعة ، لقاؤنا .

لا، لن يكون هناك لقاء .لابد أن أنسحب ...لابد أن أعتذر. رنين الهاتف ، يرعش صمتى المنتظر . نبراته الحنونة ، تهمس فى لهفة :

– كنت على وشك النزول .

– كيف حالك ؟

– بعد لحظات ، سأكون معكِ ، تصورى ...

– لن أكون معك

– لا أفهم

– هل تقبل اعتذارى ؟

– اعتذارِك ؟

– لا أستطيع لقاءك

– لا أفهم

– لا أستطيع لقاءك

– ألم نتفق ؟ ألم نرتب لهذا الموعد منذ شهور ؟

– لا أستطيع لقاءك

– أعرف أنكِ متقلبة المزاج والعاطفة ، ولكن هل يمكن أن تتغير مشاعرك بين يوم وليلة ؟

– لم تتغير مشاعرى

– ماذا إذن ؟

– لا أستطيع لقاءك

– من حقى أن أفهم

– يبدو أننا لم نُخلق لكى نقترب . كل شىء بيننا جميل ، وكل منا فى طريق

– سيكون أجمل لو التقينا

– عندك ضمانات ؟

– ضمانات ؟ هذه لهجة غريبة عليك . منذ متى تبحثين عن الضمانات ؟ لم أعهدك إلا محلقة فى سماء الدهشة ، والخطر .

– لم أعهدك إلا بعيدًا

– ألم يحن الوقت ، لأقترب

– أرجوك حاول أن تفهمنى

– عفوًا ،لا أستطيع قبول اعتذارِك

– وأنا، عفوًا ،لا أستطيع لقاءك

تقطعت خيوط الهاتف .ذهب صوته الحنون، حيث الأفق البراح ، لا يمن بالعزاء .

" انتظارك " يحرك سحابات قلبى الساكنة .. يتمايل مطرًا نبيلاً ، يعيد إلى وقارى سحره المحتجب ... تستعيد سماء الكون دلالها الأزرق .

عدتُ إلى انتظارك ، الزاهد فى الوصال .. عدت إلى انتظارك ، لا تقدر عليه إلا عاشقة ، أخلصت فى هواك إلى حد الجنون ... عدت إلى انتظارك ، حيث لآلى الفيروز فى عينيك ، منارة أحلامى ...

أنا أنتظرك ... أنا مازلت أنا ، بكل خيرى .

أنا أنتظرك ... إذن أنا فوق العالم .

هناك – بلا شك – مؤامرة كونية ضد لقائنا . قد تكون أول مؤامرة عرفها التاريخ تحاك لصالح المتآمر عليهم .

سررت لهذا التفسير ، وأكملت انتظارى .

البكاء على صفحة الماء

أين ذهبت الدموع ؟

تتساءل ، وهى تعد حقيبتها للسفر . .

الألم يعتصر قلبها ، الذى لم يفهمه أحد . تفتش عن مذاق الحياة المفعم بالفرح . مازال " هو " ، الفارس النبيل ، دافئ العواطف ، الذى يسكن دمها . لكنهاحين تريد أن تبكى ، لاتأتيها الدموع . منذ شهور ، والبكاء واحتها ، التى تحتضنها فى ود ، وحنان . كانت الدموع صديقتها الوحيدة ، الحميمة ، التى تمنحها دفء الصداقة ، دون غرض ، دون مقابل .

أين ذهبت الدموع ؟

تتساءل ، وهى تعد حقيبتها للسفر . .

الآن ، تبكى بعنف . . تبكى فى الليل . . تبكى فى النهار . . لكنها تبكى دون دموع . تبكى بكاءً جافًا ، إنه أقسى وأشد أنواع البكاء .

أين ذهبت الدموع ؟

تتساءل ، وهى تعد حقيبتها للسفر . .

إلى " البحر " ، تسافر .

مسافرة مع حقيبة مغلقة ، وجرح مفتوح . مسافرة مع بكاء دون دموع . . تريد أن تبعد إلى أقصى مسافة . تشتاق إلى الترحال تهفو إلى "البحر " .

" البحر " . . هو الرجل الوحيد ، الذى دائمًا ما تعود إليه . تشكو له خيبات الأمل ، والألم . و " هو " دائمًا الكريم . . رحب الفهم . . دافئ الأحضان .

" البحر " . . هو دائمًا ، عزاؤها الوحيد . . وهنيئًا لمَنْ كان البحر عزاؤه .

تقود سيارتها ، فى طريقها إلى " البحر " . . تتوق إليه . . تتخيل أنه بجوارها . . كان يريد أن يسافر إلى البحر معها . . وكانت تسافر دونه . الآن ، ترغبه معها ، عند " البحر " . لكنه أصبح ذكرى تحملها فى القلب ، أينما ذهبت .

سألها البحر وهى مرتمية بين أحضانه : " ماذا بكِ ؟ لستِ أنتِ مـن اعتدت رؤياها . مازلتِ تجيدين السباحة على صفحة أمواجى ، لكنكِ شاردة .. حزينة .. ماذا بك .. ؟ "هكذا سألها " البحر" .

تمددت على الرمال . . أسلمت ملامحها للسماء . . ألقت بأمنيات إلى الشمس الغاربة ، لكنها لم تبح شيئًا للبحر .

جمال البحر الفيروزى . . السماء رقيقة الزرقة .. الشمس حنونة الخيوط . . زقزقة العصافير . . الهواء ناعم اللمسات . . لوحة رائعة التكوين . . . متناغمة الألوان ، تزيد من عذابها . " الجمال " ، يفتح الشهية لكل ما هو جميل . و " هو " كان جميلاً . الناس يمرحون ، يضحكون ، يستمتعون بالشمس والبحر . من بعيد ، تتأملهم . تشعر بالغربة عن مرحهم وضحكاتهم . تشفق على " البحر " من هذا الصخب ، الذى يسمونه " استمتاعًا بالحياة" .

بينها وبين الناس مسافات ، لكن مجرد أن تراهم من بعيد ، تشعر بعدم الارتياح . مجرد رؤيتهم ، وهم من بعيد يتحركون ، صخب لاتحتمله . والصخب يخيفها . سافرت لتنعم بخلوة هادئة ، ممتدة ، مع البحر . لا تريد أن تسمع أحدًا ، إلا " البحر " .

ألقت بنفسها إلى "البحر" ..

لا تدرى كم مضى من الوقت ، وهى سابحة إلى اللامنتهى . ساعات ، أو عام ، أو دهر من الزمان ، ربما . لا تريد أن تتوقف عن السباحة .. لا تريد العودة إلى الشاطئ . . لاتريد فراق الماء .

الذكريات تسَبح معها .. لا تريد أن تتذكره . . لقاؤها الأخير معه ، كابوس مُرعب ، يثقل على أنفاسها . . تود أن تلقى به إلى الماء . . لكنه ملتصق بجسدها ، ودمها .. تناجى النسيان . . تود لو تخرج من الماء وقد فقدت الذاكرة ، فلاتعود تتذكر ملامحه ، أو اسمه ، أو حبه الجميل .

لو يستطيع " الماء " أن يهبها النسيان . لو ينعم عليها "البحر" بـ موت الإحساس . تتمنى لو حملتها الأمواج ، حيث لارجوع . ولكن ليس كل ما تتمناه ، القلوب ، يطرق الأبواب .

على صفحة الماء ، جاءها أخيرًا البكاء . . اختلطت دموعها ، بقطرات البحر . . بكت كثيرًا . تاه البكاء وسط البحر . .

أشد ما تبكيه ، إحساسها بأنها " مظلومة . كيف يظلمها ، وهو الرجل الحالم بالعدل ؟ كيف لم يستمع إلى دفاعها الأخير ؟

" قالوا لها : " لماذا تبالغين فى الأمر ؟ علاقة وانتهت . . رجل ومضى إلى حال سبيله . . إنه ليس كما تتصورين ، الفارس النبيل . . إنه مجرد رجل عادى ، بل أقل من العادى . كنتِ الشيء الوحيد المميز ، الغير عادى ، الذى حدث فى حياته . لكنه مثل كل الرجال ، لا يريد إلا امرأة عادية ، ولايستطيع التعامل ، إلا مع النساء العاديات . . المتشابهات " . لا تدرى ، أهم على حق ؟

لا أحد يفهم لماذا تبكى ؟ لا أحد يشعر بما يحترق فى روحها ، وقلبها .

مازالت تسبح ، حيث مكان لا وجود له . حنان الماء ، يغريها بعدم التوقف .

نصحتها صديقتها ، أن تخفى عنه عذابها ، وألا تصرح له باشتياقها ، وندمها . . فالرجل يصيبه الغرور ، والجبروت ، إذا شعر أن المرأة تحبه إلى درجة الألم . .

هى لا تبالى بنصيحة صديقتها ، ولا تصدق كلام الناس عنه .. لا يهمها لو أصابه الغرور ، والجبروت . كل الذى يهمها ، أن تكون صادقة ، تعبر كما تشاء وقتما تشاء ، عن مشاعرها . . كل الذى يهمها ، أن تلفظ سريعًا . . هذا الرجل ، من دمها ، وروحها . ولن يحدث هذا ، إلا إذا عبرت بصدق عما يؤلمها ، ويعذبها .

على صفحة الماء ، تطفو أيام العشق الجميلة . تحتضنها .. تتشبث بها .. وتسألها أن تغفر لها حماقاتها .

لكن أيام العشق الجميلة ، لا تغفر . . تعذبها فقط بأحلى الذكريات .

إلى متى يعربد ذلك الرجل فى دمها ؟ إلى متى ، سيبقى مقيما فى الذاكرة ، ملتحمًا بأفق الخيال ؟

وإلى متى تمارس الحياة ، دون فرحة القلب ، ونشوة الروح ؟

تهفو إلى يوم واحد معه . . أيام العشق الجميلة . . مازالت تسبح .

أخذها التيار بعيدًا جدًا ، حيث لا عودة ، وحيث كل الأشياء ، وكل المشاعر سواء .

٢١ ينـــاير ٢٠٠١ !

في الحادى والعشرين من يناير ٢٠٠١ . . مساء الأحد . . كانت راقدة في الفراش ، مُرهقة الروح ، مُتعبة الجسد . . وحيدة كعادتها ، مع ذكريات تعربد في الذاكرة ، تتألم وهى تدرك أنه لا عزاء مع الألم . . فالألم أحمق ، لايميز بين مَنْ يستحق العذاب ، ومَنْ لا يستحقه . وحيدة ، كعادتها مع تساؤلات ، تؤرق وسادتها التى تبخل عليها بالحنان .

في الحادى والعشرين من يناير ٢٠٠١ ، مساء الأحد ، كانت في الفراش تبكى بدون دموع ، تئن بصوت مكتوم ، تنتفض برغبة مُلحة في الخلاص " .

" الخلاص " . . . من ماذا ؟ و " الخلاص " إلى ماذا ؟

" الخلاص " من كل شيء . . من الناس . . من الأمنيات . . من الإحساس . . من خيبات الأمل . ومن الأمل نفسه ، تود " الخلاص " . تتمنى " الخلاص " من هذا السيرك المرعب ، الذى قذفت إليه ، دون أن يستشيرها أحد . سيرك مرعب ، صاخب ، يسكنه المهرجون ، والبهلوانات والحواة ، والحيوانات المستأنسة .

سيرك مُرعب . الجميع فيه ، يرتدون الأقنعة ، ويمشون على الحبال ، ويخرجون من جيوبهم ، أشياء تبعث على السخرية . سيرك مُرعب يصيبها بقشعريرة الروح ، واعتكاف الجسد . . سيرك مُرعب اسمه " الحياة " .

فى الحادى والعشرين من يناير ٢٠٠١ ، مساء الأحد ، كانت تتمنى "الخلاص " من هذا السيرك المُرعب . . تقطع كل الخيوط التى تسجلها على قيد الحياة .

أما " الخلاص " إلى ماذا ؟ لا تدرى . . ولا تريد أن تدرى . ولم تعد تستطيع أن تدرى . لقد استنزفت قواها ، وأهدرت طاقتها داخل هذا السيرك . . لم يعد لديها قوة أو طاقة تهبها لشىء .

فى الحادى والعشرين من يناير ٢٠٠١ ، مساء الأحد ، فجأة ، انشقت أرضها المعتمه عنه . . هبط على روحها الذابلة ، لا تدرى من أين .

رجل من نور باهر ، آت من كوكب مجهول ، أمد لها يديه . . وروحه خرافية السخاء . سمعت صوته لأول مرة ، وبقيت سابحة على نبراته الفضية ، حتى خيوط الفجر .

ألقى لها بقلبه المفعم بالدفء ، طازج الدقات . . كان قلبه طوق النجاة ، ترددت .. قاومت . . لم تدرى هل مازالت صالحة للإنقاذ . . هل تستطيع التعامل مع قلب ، لم يفقد براءته ونقاءه ،

بعد أن فقدت إيمانها بالبراءة ، والنقاء ؟ أهناك بارقة أمل ، فى أن الدنيا لا تزال بخير ؟

قالت له : " تصغرنى فى العُمر ، وتكبرنى بآلاف السنوات من العشق ، والدفء " .

قال لها : " لا يهمنى " . . .

قالت له : " إنى مستنزفة الروح والجسد " .

قال لها : " استلقى على قلبى . . سيكون واحتك " ..

قالت له : " إنى مريضة القلب " .

قال لها : " أنا دواؤك " .

قالت له : " ليس عندى شىء أقدمه لك " .

قال لها : " لا أريد شيئًا " .

حُبه كان عنيفًا ، جارفًا أطاح بترددها ، ومقاومتها . . لم تتعود على هذا الحب الجميل . لم تلتق أبدًا ، برجل بهذا السخاء العاطفى . . فشعرت بالذعر .

قالوا له : " ليست هذه المرأة المناسبة لك . . احذرها " ..

رد عليهم : " أحب لأول مرة فى حياتى . . لا يهمنى إن كانت المرأة المناسبة أم لا . . يهمنى أنها حبيبتى . . لا يهمنى إلا أنها هى . . هى " .

قالوا لها " هذا ليس الرجل المناسب لكِ " قالت : " منذ زمن أبحث عن هذا القلب الدافئ " .

وكانت صادقة . فهى ليست كالنساء ، تبهرها الهدايا ، والجواهر ، والفلوس ، والمناصب ، ورغد العيش . هذه أشياء تافهة ، مزيفة لا تعنيها ، لا تغريها ، لا تحركها .

شيء واحدفقط يعنيها ، يغريها ، يحركها . شيء واحد فقط ، تسافر له آلاف الأميال ولا تتعب . . ولا تندم . " دفء القلب " .

قلبه الدافئ ، سخاؤه الذى لا يقدر عليه إلا الفارس النبيل ، عواطفه المتأججة ، كلها جعلت منه - بلا منافس - العاشق الذى يتحمل بقاياها المحطمة ..

كانت دائمًا تحلم برجل ، يتقبلها ، يحبها ، يحتويها كما هى . . يحارب العالم من أجلها . . كانت تقول "من حقى أن أتدلل ولو مرة واحدة فى العمر . . " كانت تريد أن تشعر بمذاق الدلال على رجل يحبها . . همست لنفسها " إذا لم يتحملنى ، هذا القلب الدافئ . . السخى ، المتأجج ، فلن يفعل أى رجل آخر . . . إذا تعب أو ملّ من دلالى ، فعلى الدنيا السلام . . " .

مرت الأيام معه ، وهى تزهو بدلالها عليه . . يعطيها كل لحظة ، من روحه ، ودمه ، وأعصابه ، وحبه ، واهتمامه ، وغيرته الجميلة . حتى شكوكة كانت نبيلة ، دافئة مثل قلبه .

كلما أفزعها عطاؤه ، تقول له " هذا كثير " .

يقول فى تواضع الفارس النبيل : " أنتِ تستحقين أكثر " . . أسعدها أنها حُبه الأول . . " حبيبتى " . . يقولها لها ، بكل عنفوان الحب الأول . . يقولها مُحملة بكل عذابات الماضى ، ودهشة الحاضر .

" معبودتى " . . هكذا وصفها . . ورغم أنها هى التى كانت تتدلل عليه ، وصفته " بأنه طفلها الجميل " . . حملها على أجنحة سحرية ، إلى عالمه .. أحبت عالمه ، وتفاصيل حياته الغريبة عنها . . أدخلها نعيم جنته ، وراقت لها الإقامة هناك .

يمر الوقت ، تزيد من دلالها عليه . . أخطأت فى حقه كثيرًا ، جرحته كثيرًا ، واعتقدت أن هكذا يكون الدلال . . احتملها مرة . . مرات . . وهو كعهده ، القلب الدافئ ، والسخاء النبيل .

الحادى والعشرون من يناير ٢٠٠١ ، مساء الأحد ، مرَّ هذا التاريخ ، سريعًا كالحلم . . تتلفت حولها فى ذهول . . عادت وحيدة كما كانت دائمًا . . مُرهقة الروح ، مُتعبة الجسد . . روحها تنزف ، تكاد تجن من هول الصدمة ..

تتلفت حولها فى ذهول . . كان يحبها بجنون ، أصبح يلعنها بجنون ..

كانت ملكة متوجة على عرش قلبه ، تأمر فيأتيها كل ما تشتهيه .. صارت جارية ، تتوسل لحظة رضاء ، أو لحظة غفران ، ولا يَمن بها . كانت مُقيمة فى جنته ، أصبحت تلف حول أسوارها . .

الجدران عاليه والأبواب مغلقة ، والملامح قاسية . . فأين ولمَنْ تذهب ؟ تتلفت حولها فى ذهول ..

فعلت أقصى ما يفعل ، تحملت ما لا تحتمله امرأة . . لمجرد أن تقول له " اعتذر " . . اعتذرت عن دلالها الزائد . . عن أشياء فعلتها بدون قصد ، وجرحته . . اعتذرت عن التوقيت المحرج الذى دخل فيه حياتها . . قالت له : " كنتُ فى مفترق الطرق . . كنتُ فى مرحلة تحول وجدانى ، كنتُ مضطربة . . غير متوازنة" .

اعتذرت عن أوقات السعادة التى بخلت بها ، عليه . . اعتذرت عن اختفائها ، ليس لأنها تغيرت . ولكن اعتقادًا منها أن الاختفاء ، قد يصلح ما بينهما . إعتذرت عن كل الأخطاء ، والحماقات .

وبالسخرية القدر . مع الرجال الذين يسقطون بمجرد مقارنته بقلبه الدافئ وسخائه النبيل ، كانت حريصة على عدم الخطأ . ومعه هو أجمل ، وأنبل مَنْ عرفت ، سمحت لنفسها بالخطأ ..

تتلفت حولها فى ذهول ..

ذهب ، فى الوقت الذى وصلت فيه إلى ذروة الحب . . ذهب ، فى الوقت الذى تريد أن تهب له سعادة الدنيا . .

يسحقها الندم . . لا تتذكر إلا عواطفه الجميلة . وهو لا يتذكر

إلا أخطاءها ، وحماقاتها .. تبعدِ عن ذاكرتها ، لحظات غضبه العنيف ، وشكوكه الجارحة . . ولا تُبقى فى الذاكرة ، إلا روعة حُبه ودفء قلبه ، وسخاء روحه .

" لم أعد أحبك . . لا شيء عنكِ ، أو منكِ ، أصبح يؤثر . . محايد تمامًا تجاهك " . . هكذا تكلم وهى تتهاوى أمامه ، ندمًا . . ودموعها تسبق كلماتها . .

" أصبحتِ مثل أى إمرأة أخرى " . .

هكذا جاء رده ، على طلبها للمغفرة ..

قال لها : " إنها مُجرد نهاية علاقة . وليست نهاية العالم "

صرخت : " أنا لا تهمنى نهاية العالم . . . العالم كله لا يعنينى . . أنت الذى يعنينى . . وحُبك هو الذى يهمنى " . . .

تحملت نظرات الشك المطلة من عينيه . . تحملت الإهانة ، والإدانة . لم يرحمها لحظة ضعفها ، وسقوطها . . حينما تفكر ، تدرك أنها لم تكن لحظة ضعف ، ولحظة سقوط . . بل لحظة قوة ، ولحظة سمو . . مَنْ منا لايخطئ . . لكن كم منا يندم ، ويعتذر ، ويحتمل الإهانة ، من أجل أن يريح ضميره ، ويعتذر .

الحادي والعشرون من يناير ٢٠٠١ مساء الأحد ، مرً هذا التاريخ سريعًا كالحلم . . مرض جسدها بشيء غريب ، يسحب شهيتها للحياة ، تقلصات ساخنة تهاجمه من حين لآخر .

الدنيا هى الدنيا . . الناس هم الناس . . ويستمر القدر فى لعبته الهزلية . . يسخر من مشاعرنا ، تطيح مفارقاته بأحلى أيام عمرنا . . يهيئ لنا الصعود إلى ما بعد السموات ، ويهوى بنا ، إلى ما تحت قاع الأرض .

الحادى والعشرين من يناير ٢٠٠١ ، مساء الأحد . . مرَّ هذا التاريخ سريعًا كالحلم ، وَحيدة كعادتها . . مُحاصرة بالذكرى ، وهداياه الجميلة ، تزيد من عذابها .

" زمن الحب الجميل " . . كان هذا زمنه . . لا أحد ينازعه فيه . . تؤرخه باسمه ، .. وتخلد ذكراه .

كانت ومازالت ، تحلم بعالم يسود فيه العدل ، وهذا النزف اليومى ، والعذاب الذي يمزقها ، تدرك أنه من العدل . فهى تستحقه ، ولكنها حين طُبق عليها العدل ، شعرت بالظلم . . ليس من العدل ، لها أن تفقده ، وقد أوصلها الندم والآلام ، إلى حافة الهذيان والجنون . . ليس من العدل لها أن تفقده وهى لا تريد سواه .

ليس من العدل له أن يذهب ولا يعرف كم أحبته . . كم سكن القلب والروح . . ليس من العدل له أن يمضى ، ولا يأخذ كل الحب الذى اكتشفته ..

ولكن ، منذ متى ، يتحقق العدل فى أى شىء ..

مُنذ متى ، يُبالى العالم بنزف الروح ، واعتصار القلوب . .

الحادى والعشرون من يناير ٢٠٠١ ، مساء الأحد . . كان يداعبها دائمًا بقوله : " لن أكون واحدًا من ضحاياكِ " . . هى الآن ضحيته . .

سوف تحزن كثيرًا ، لو أحب بعدها . . سوف تغار كثيرًا ، لو منح قلبه لامرأة أخرى ، وناداها " حبيبتى " .

أما هى ، كيف تحب رجلاً آخر . بعده ، قلبها ، قد مات ؟ لفظ دقاته الأخيرة ، حين قال لها : " لم أعد أحبك . . أصبحت مثل أى امرأة " . .

مات قلبها . . ولا شىء يمنحها العزاء ، إلا أنه يومًا ما ، أحبها . . فهى ليست جشعة العواطف . . يكفيها ، أنه ذات يوم ، أسكنها قلبه ، وذاقت نعيم جنته .

كما كانت تحتاج إلى فرصة أخيرة معه ، تبرهن على حُبها ، وتمنحه سعادة الدنيا .. لكنه وهو السخى الكريم ، بخل بها . الله ، قد يغفر ، لكن البشر ، لا يغفرون .

لا تلومه . . لقد حسبها حساب أرباح وخسائر . .

سأل نفسه . . ماذا سأجنى من ورائها؟

ماذا سأحصُد من ورائها ؟ لا شىء . .

النساء كثيرات ، أى واحدة منهن ، تستطيع أن تعطيه ، ما يشاء ، وقتما يشاء . أى واحدة منهن ستقدم له ، ما عجزت هى عنه ، فلماذا لا يتخلى عنها ؟

الحادى والعشرون من يناير ٢٠٠١ ، مساء الأحد . . تحتضن الألم . . تستعذب نزف الروح . . كلاهما منه هو . . وأى شىء منه ، غال وجميل .

رجل نادر الدفء والحماقة

بالورد ، وشعرك الأسود الكثيف ، اقتحمت صومعتى ، عشت عمرى أبنيها ، وأرتبها لتسعنى وحدى .

بكلمات بسيطة على الورق ، وعبر الهاتف .. بنظرة غامضة من عينيك ، طرقت على أزمنة غابت عن الزمن . رفرفت روحك الكريمة فوق سمائى ، فيكف لا أسمح لخيالى بالتحليق ؟

الدفء المشع من قلبك ، أعاد لى الثقة ، أن الدنيا مازالت بخير ، وأن الحب لا يزال يسكن الأرواح ، فكيف لا تجتاحنى رغبة الفضول ؟

شيء ما ، لا أعرفه بالتحديد ، أخرجنى من صومعتى ، لأستجيب إلى لقياك .. شيء ما ، يتدفق من صوتك ، من خطواتك .. من نظراتك . . من ابتسامة شفتيك ، جعلنى أفتح لك الأبواب المغلقة سنوات .

ترددت .. تقدمت خطوة ، خطوتين .. تراجعت . لكننى فى النهاية ، فوجئت بنفسي بين يديك .

ارتميت على دفء قلبك . تمددت .. استرخيت على حنانك .. حكيت لشفتيك عن أسرارى .. غفوت على همساتك الموحية بالأمان .

فى ليلة شتائية الرحيق ، أمطرت السماء بقليل من المطر ، والكثير من اشتهاء الجنون .

قلت لي : " كل شيء معكِ له مذاق خاص يسحرنى ، يأسرنى ، ويرعبنى . كيف عشت العمر الماضى ، بدون أن يدق قلبى بهذا العشق المدمر ؟ " .

فى ليلة ربيعية النسائم ، سألتك : " أيمكنِ حقًا أن تكون رجلا مختلفا ؟ أيمكن أن تمنحنى لحظة الفهم ، عبثًا ألهث وراءها ؟ أيمكن أن تحتضن شطحات مارد الفن الساكن داخلى ؟ " أيمكن أن تطلب أشياء " تختلف عما يطلبه دائما الرجال ؟ .

بعد اليأس من كل القلوب ، سألتك : " هل أجد فى قلبك ، ركنًا ، هادئًا ، حنونا ، يحتوينى دون أسئلة ، أو تطفل ، أو غيرة حمقاء ، أو شك قاتل ؟ " أو " غرور الرجل " ؟ .

قلت : " لن أبخل عليكِ بالفهم ، والحنان ، والدفء ، والارتواء . لست أطلب شيئًا سوى أن تدخلينى حياتك . أحببتك قبل أن أراكِ . فقط ، كنت أحلم بأن أسمع صوتك ، وحينما رأيتك وسمعت صوتك ، عرفت للحياة معنى ، ولوجودى مبررًا جميلاً ، عشقت أغنيات الغرام .. فقدت شهيتى لكل النساء . أصبحت أنتِ كل النساء . .

أصبحت الحلم ، والحقيقة ، أنتِ أهم ، وأجمل ، وأغلى شىء حدث لحياتى . ربما لن تحبينى مثلما أحبك .. ربما أخطأت التوقيت .. ربما لا أجيد التعبير ، وحين أكتب إليكِ ، يكون خطى ردئيا جدًا . لكننى أعشق كل ما فيكِ . أخاف أن أصحو من هذا الحلم .. أخاف أن أواجه يومًا بدونك .. أخاف أن أفقدك" !

قلت لك : " أنت تعرف جيدًا ما الذى يجعلك تفقدنى . . . ألا تخدش حريتى .. أن تتركنى كما وجدتنى امرأة حرة المشاعر ، وحرة الإرادة ، وحرة الفرح ، والأحزان حريتى هى التى مهدت الطريق إليك . . حريتى هى التى جعلتك تحبنى . أرجوك ، شرطى الوحيد ، ألا تمس حريتى" ...

همست لى قائلاً : " أعدك بأن أكون إضافة لحريتك . . أفعل أى شىء لأبقيكِ معى .. أفعل أى شىء ، لأكسب رضاكِ ! "

خطأى الذى لن أغفره لروحى ، أننى صدقت كلامك ، وثقت فى وعودك . خطأى أننى توسمت فى قلبك ، شيئًا مختلفا عن قلوب الرجال . كان شرطى الوحيد ، أن تتركنى محلقة فى أجواء الفن ، والجنون ، وعربدة المحال . تمنيت لو تفهم جوهر شخصيتى ، رغما عن كل المظاهر الخادعة ، ورغما عن كلام الناس ، ورغما عن سلوكياتى المتقلبة ، وغرابة مزاجى .

خطأى الوحيد ، أننى فى وقت قصير جدًا ، سمحت لعواطفى أن تشتاق إليك ، وتتلهف عليك ، وتقضى أمسيات العشاء معك

على ضوء الشموع . خطأى الذى لن أغفره لـ نفسى ، أننى معك كنت (كعادتى) كتابا مفتوحًا ، مقروءًا على العلن ، بل أنا الذى أخذت بيديك لتطوى صفحاته ، وأسراره .

أردتك حرًا طليقا ، وأردتنى مشلولة ، أسيرة . أردتك مسافرًا فى كل الأجواء ، وأردتنى قابعة فى محرابك . عاملتنى كمتهمة ، عليها أن تدافع عن نفسها طول الوقت .. تدافع عن كلامها ، وتصرفاتها ، ومشاعرها ، عن الهواء الداخل إلى صدرها . كنت جاسوسًا على حياتى ، باسم العشق المجنون .. فرضت على أيامى رقابة بوليسية باسم الغيرة . حاولت أن تخنق أنفاسى ، وتنهداتى ، باسم حمايتى ، والخوف على حياتى .

أنا الأخرى ، كنت أرى فيك ، ما يجعلنى أهرب منك . لكننى كنت أقول لنفسى ، كل إنسان له عيوب . مشاعرى تجاهك كانت أقوى من شكوكك القاتلة ، وغيرتك الحمقاء .

كانت رغبتى فى بناء علاقة لها معنى مختلف ، تقوينى أمام لحظات غضبك ، وتهورك . وتواسينى حينما تحاصرنى .

كنت قصة جميلة مرت بالعمر ، وانتهت قبل الأوان .

كنت رجلا مثل كل الرجال ، فى طلباته ، وقيوده . وقد ظننتك مختلفًا . كنت نادر الحب ، والدفء ، والعطاء ، وأيضا نادر الشك والغيرة ، والحماقة ...

كنت لحنا ساحرًا ، لم يمهلنى القدر حتى أكمل رقصتى على أنغامه ..

و . . . وكنت طفلى الصغير ، الجميل ، العنيد ، المشاغب الذى حرمنى حقى فى الأمومة .

صديقنا الجميل

استهلكتك النساء قبلي .. لم يبق منك شيء ، لألهث وراءه . لكنني أجد متعة غامضة في التشبث بك .

ذبلت كل ثمارك ، جُف ماؤك ، لا شيء فيك يشبع من جوع ، أو يروى من ظمأ . لكنني حول مدارك مسحورة أطوف .

تكرر على مسامعي : " أراكِ طفلة لم تتجاوز السادسة عشرة من العمر .. وأنا لا يستهويني إلا النساء المجربات " .

أهي حجة جديدة ، تبرر بها غرابة وتناقض تصرفاتك معي؟ أهي طريقة ، لتعرف كم من الرجال أحببت و عشقت قبلك ؟ أم هو أي كلام في الهواء ، تقوله ، ولست تتوقع أن أحسابك عليه ، أو آخذه مأخذ الجد ؟

في كل لقاء تقول لي : " ألا تعرفين أنني كاذب محترف ، ممثل بارع ، لست أرى الحياة إلا سخرية ، لا تحتمل ولا تستحق إلا الكذب والتمثيل " .

أنا مثلك ، أرى الحياة سخرية ، وعبثاً ، يطيحان بكل منطق ، وتعقل . لكننى لا أكذب ولا أمثل.

فى آخر لقاء لنا ، تقول لى : " أنتِ كتاب مفتوح قرأته مرة وانتهى الأمر . حتى أدق مشاعرك أعرفها ، وأستطيع التنبؤ بكل تصرفاتك ".

يا لك من رجل مغرور.

لم يعرفنى أحد من الرجال الذين عرفتهم قبلك . أعترف أنك أكثرهم ذكاءً ، ولكن حين يأتى الأمر لمعرفتى والتنبؤ بتصرفاتى ، فإن كل الرجال سواء ، ويتساوى الأذكياء منهم والاغبياء .

لستُ كما تقول كتاباً مفتوحاً ، تقرؤه مرة ، وينتهى الأمر . لستُ نظرية منطقية لتفهمها ، لست قانوناً منضبطاً من قوانين الكون ، حتى تتنبأ به .

إننى " أنا " الإنسانة المستعصية على كل فهم ، والمرأة التى تخذل كل تنبؤ.

إننى " أنا " السائرة وحدى ضد الطبيعة ، ضد الكون ، وضد البشر ، وضد نفسى أحياناً .

إننى " أنا " أكبر معربدة ، وأعظم قديسة . الشرسة ، المتنمرة ، والوديعة الهادئة . " أنا " الفوضى فى ذروتها ، و " أنا " التناغم الأقصى . " أنا " الزاهدة فى كل شىء ، و " أنا " النهم الذى لا يهدئه شىء .

نعم ، أنا كما تقول لي واضحة . لكنه الوضوح غير الممكن ، بدون اكتمال الغموض . " أنا " مثل " الحياة " ، على الملأ ألقى بأسرارى . وليس لأحد أن يعرف سراً واحداً .

لكنك تصر على أنك تعرفنى ، وتستطيع التنبؤ بتصرفاتى . يا لك من رجل " غشيم " .

تزهو بأنك أكبر مجرب عرفه تاريخ الرجال ، وعلى يديك تكشفت شفرات كل النساء .

ربما تكون كذلك . لكنك معى ، لا حيلة أمامك ، إلا أن تبدأ من أول السطر . معى ، لا حيلة أمامك ، إلا أن تخترع أبجدية جديدة ، تحدثنى بها ، وتبتدع جسداً جديداً ، تلهمه اشتهاءه لى .

فى آخر لقاء بيننا ، تبدو كأنك أخذتنى قضية بديهية .

كلامك ، تصرفاتك ، نظراتك ، كلها توحى بأن وجودى مسلم به ، مثل شروق الشمس .

وهذه هى مشكلتك معى . لم تعد تبذل جهداً ، فى الإبقاء على حبى لك .

أتعرف أننى خسرت كل رجل قبلك ، لأنه ارتكب حماقتك ، وأخذنى قضية بديهية ، لا تستحق بذل الجهد .

إن كنت تريد أن تخسرنى ، فاستمر فى اعتبارى مثل الشمس ، عائدة أبداً إلى الشروق .

افعل شيئا قبل فوات الأوان . لا أريدك أن تصحو يوماً ، وتفاجأ بأن الشمس قد عدلت عن الشروق .

لا تجعلنا ننتهى . نحن بعد لم نبدأ .

فى آخر لقاء بيننا .. نجلس ومعنا مجموعة من الأصدقاء . نساء ورجال يشاركوننا المكان و الحديث ، والهواء .

كنت تشعر ببعض الألم ، وأعرف أنك مازلت مريضًا . تمنيت لو أخذت عنك الألم ، والمرض ، ومنحتك العافية والراحة .

أتأمل الرجال الآخرين ، وهم يتناقشون أو يضحكون ، أو يصمتون .

لا رجل منهم يشعل النار فى جسدى ، إلا أنت .. لا رجل منهم يستثير دهشتى وحب فضولى ، إلا أنت .. لا رجل منهم أحس بالانتماء إليه ، إلا أنت . ولا رجل منهم يثير غضبى ، وثورتى عليه ، إلا أنت .

تراكمت فى قلبى الأشواق يا حبيبى ، ولست أدرى ، ماذا أفعل بها . خذها عنى ، وامنحنى قلبا بلا أشواق .

كيف إليك أشتاق ؟ . وقد اعترفت لى فى إحدى أمسيات عشقنا المحرم ، أنك تحب امرأة أخرى .

كانت أمسية رائعة الحنين بيننا . كل شىء حولنا ، يدعونا للحب . الضوء الخافت ، الموسيقى الحالمة ، وكأسان ممتلئتان بظمأ سنوات العمر .

اقـتـربت مـنـى ، أمسكت يـدى مـنـذ عـرفـتك ، وهـى دائـمـة الارتعاش .. قلت لى : " لا أستطيع أن أتمادى فى الحب معكِ . لم أحب فى حياتى كلها ، إلا امرأة واحدة . هى فى قلبى منذ تفتح شبابى . سنوات طويلة مرت ، وكل منا فى طريق . لكننى مازلت أحبها ، ربما أنتظر عودتها .. لا أدرى . إنما هى امرأتى ، ولا امرأة سواها يمكنها أن تأخذ قلبى " .

صدمنى اعترافك . لكننى لسبب ما ، لم أبتعد عنك ، ووجدتنى مصرة عليك أكثر . شىء غريب ، أليس كذلك ؟

فى قلبك امرأة أخرى ، هى كما اعترفت حبك الأول ، والأخير . وليكن الأمر هكذا . دعها فى قلبك إلى الأبد . فأنا لا أريد امتلاك قلبك ، ولست فى " حالة حب " معك ، لأغار من حبك الأول ، والأخير . أنا معك فى حالة غريبة ، لا أجد لها وصفا فى اللغة .

لست " فى حالة حب " ، ولكن " حالة حياة " . حياة متجددة ، فى كل لقاء . حياة كاملة من البهجة ، والمرارة ، واستحالة الأمنيات . حياة تناقض نفسها كل لحظة . حياة تلغى الحياة ، وتعيدها كلما التقينا .

ما بيننا ليس " حبًا " بالتأكيد . فأنت تستحق أجمل ، وأرقى ، من الحب . وأنا قد تجاوزت مرحلة الحب منذ زمن بعيد .

دع تلك المرأة فى قلبك كما تشاء . ودعنا معاً فى هدوء ، نكتشف مذاق الشىء الغريب الذى يجمعنا .

إبق وفياً لحبك الأول والأخير . ولكن لا تحرمنى حنان شفتيك .

أحيانا أتمنى ، لو كنت التقيتك قبل أن تخريك الأيام .

لكننى سريعاً أعود إلى صوابى ، وأعدل عن التمنى .

أريدك كما أنت الآن . مثقل بخيبات الأمل ، والحسرة ، والعجز . أنت أحلى رجل فى نظرى .

أن أحبك أنت ، وأحتملك بنفس راضية ، لهو برهانى الأعظم ، على أننى مستعصية على الفهم . أخذل كل تنبؤ ، ضد كل تيار أسبح وحدى .

ماذا أنتظر معك ؟ وما معنى " الأمل " فى علاقة مثل علاقتنا؟

" الأمل " .. كلمة بيننا ، لا نقر بها حتى بالخيال . " الأمل " ، إثم لا نحتمل اقترافه ، ولا نحتمل التكفير عنه .

ماذا أنتظر معك ؟ ولماذا الانتظار ؟

وحده اليأس منك ، يمنحنى انتشائى .. اليأس صديقنا المشترك ، وهو الذي يجمعنا ، وهو الذى يدعونا لأمسيات السهر . على أنغامه نرقص ، ونغنى ، ونشرب ، ونضحك على مصيرنا معًا .

كل ليلة أشرب من يديك اليأس ، أظل أشرب إلى أن أتوه عن نفسى ، وعن الدنيا ، لكننى لا أتوه عنك أنت .

ما أجمل اليأس معك . هو " بيتى " أرتاح فيه ، وبين طرقاته أتحرك بحرية .

ما أجمل اليأس معك . هو " فرحتى " النبيلة ، المنزهة عن كل غرض ، المترفعة عن كل رغبة .

يرن الهاتف .. من الرنين أعرف أنه " أنت " .

تسألنى : " ماذا تفعلين الليلة ؟ " .

قلت : " أكتب قصة جديدة " .

تقول : ؛ هل نلتقى الليلة " .

قلت : " نلتقى " .

تسألنى : " ألن أعطلك عن الكتابة ؟ "

همست بينى وبين نفسى " أنت الكتابة " ..

تعيد السؤال : " ألن أعطلك عن الكتابة ؟ "

قلت : " أريد أن أراك الليلة " .

لا أنت تدرى ، ولا أنا أعلم ، إلى أين تأخذنا الليلة . لم التساؤل والانشغال ، واليأس صديقنا الجميل ؟؟

رجل هارب من الأبجدية

تعودت على أن كل المشاعر طوع قلمى . الحياة كلها صفحة بيضاء تنتظر الحروف والكلمات . ليس هناك من إحساس يعلو على الكتابة . هكذا بدا لى الأمر ، وهكذا تشكلت علاقتى بالكلمة ، حتى التقيت بك أنت .

" أنت " ، غيرت كل شىء ، بدلت قناعاتى ، ورسمت لحياتى ، دروب سفر لم تعانق خيالى .

منذ لقائنا الأول ، هناك على شاطئ البحر ، فى ليلة اكتمل فيها القمر ، ونفضت عن الروح أحزانها ، وأنا أحاول أن أكتب عنك ، لكننى لا أستطيع .

تتعدد اللقاءات ، تتوالى أمسيات الفرح ، تمتد سهراتنا حتى خيوط الفجر . أحاول أن أكتب عن لقائى بعينيك ، والفرح بين يديك ، لكننى لا أستطيع .

فى كل مرة تخذلنى الكلمات ، فى كل مرة يهرب القلم من بين أصابعى .

يعذبنى هذا العجز، ما من رجل قابلته، وكان عصى المنال على الكلمات. ما من رجل أحببته، وكان حبه تحديًا للكتابة. إلا " أنت ". إحساسى بك مكتوم فى قلبى. حبك يملؤنى، يرقد على ملامحى، يلون أيامى بأحلى الأشواق. نهاراتى انتظار لموعدنا وفى الليل أحدث النجوم، عن رقتك، وحنان لمساتك. أصبحت الهواء الذى يدخل إلى صدرى، فأنتشى.. وأنت ارتوائى بعد أزمنة الجفاف. لكننى لا أستطيع الكتابة عنك. أيها الرجل الهارب من الأبجدية.. أيها الرجل المعاند لغتى، قل لى ما سرك ؟ ماذا فيك يلهث وراءه القلم وليس يناله ؟

منذ أيام التقينا. نساء ورجال يقتسمون المسافة بين وسامتك، وحنينى الحائر. تسافر بيننا نظرات الوداد، وذكريات تتمنى العودة إلينا.

أتأملك، أرهف السمع حين تتكلم، أشعل لك سيجارتك، فأحس أن نعيم الدنيا هو وجودى بجانبك، وأننى خلقت فقط لأحبك. كلامك مختلف عن كلام كل الرجال.. ملامحك مميزة عن ملامح كل الرجال.. أحلامك فى الحياة غير أحلام كل الرجال. وأنا أذوب عشقًا فى اختلافك.

برقة تسألنى أحب الأسئلة إلى نفسى : " ماذا عن أخبار كتاباتك. مضى وقت طويل دون أن أقرأ شيئًا جديدًا ".

أقول وأنا أحتضن اهتمام عينيك : " أنا أكتب. لكن النشر، مسألة لا أتحكم فيها ؟ ".

تقول " لا تدعى هذا يقلقك . المهم أن تظلى تكتبين " .

حديثك دواء لروحي ، وسؤالك عن كتاباتى يشعل النار فى جسدى ، وأرضى الاحتراق . أليس رائعًا أن يحولنى حبك إلى حفنة من الرماد ؟

انبعثت الأنغام من حولنا . كم هى جميلة تلك الموسيقى الحالمة . شرد خيالى فى أمنية مجنونة ، أن تطلبنى للرقص ، ونسبح معًا على بساط من نغمات .

لا أدرى ما الذى حدث فى الكون . . فها أنت ذا تطفئ سيجارتك . . تنهض . . تقترب منى ، وتهمس لى " أتسمحين برقصة " ؟ .

أخذت يدى بين يديك .

لست أدرى كم فات من العمر ، ونحن تائهان فى مدار النغم . أبدًا لم نكن بهذا القرب . . أبدًا لم نكن بهذا الاشتياق .

قلت لك : " كم تمنيت أن تدعونى للرقص معك ، الرقص معك حياة بأكملها " .

قلت : " إننى أرقص على موسيقى عينيكِ " .

انتهت سهرتنا ، وبدأت رغبة جامحة فى الكتابة عنك . لكننى مازلت عاجزة .

أود أن أخلد كل لحظة أعيشها معك . . أريد أن أكتب عن الفرح الذى لا أحسه ، إلا معك . . أود أن أصرح على الورق ، كيف عوضنى حبك عن خيبات الأمل الماضية . . وكيف فتحت شهيتى ، لكل عنفوان الحياة ، ولذة العيش .

أقرر أن أكتب عنك . أجلس مؤتنسة بسكون الليل ، ورائحة القهوة ، مهيأة تمامًا لعناق حبك على الورق . . وأنتهى حيث البداية . لا أستطيع الكتابة عنك .

على الصفحة البيضاء أجرى وراءك . . تراوغنى . . أتعقبك ، أحاول اصطيادك ، لكنك تفلت ساخرًا من محاولاتى .

أهذا عدل يا ربى ؟ الرجل الذى أهدانى مذاق الفرح ، لا يطيع قلمي ؟ الرجل الذى كل لقاء معه مغامرة روحية ، لا أعرف مداها ، يهزمنى أمام كلماتى ؟

قلت لك ذات مساء : " أحاول الكتابة عنك " .

قلت ضاحكًا : " حاولى ، لكنك لن تستطيعى " .

أعرف أنك لست مثل رجالى السابقين . . أعرف أنك لست كلمة أكتبها ، وتذهب لحال سبيلها . . أدرك أنك فوق الكلمات ، واللغة ، وكل سبل التعبير . ومع ذلك ، يؤلمنى عجزى عن الكتابة عنك . لكننى أعترف أنه ألم جميل طالما انتظرته .

كنت أبحث دومًا عن رجل ، لاشيء يطوله . كنت أبحث دومًا عن رجل يحرجنى أمام لغتى ، وعبثًا يحاول أن يخضعه القلم . أبحث عن رجل لا تكتبه الكتابة ، وهو أحلى الكلمات .

غدًا موعدنـــا .

ابق كما أنت ، رجلا فى عليائه ، لا تبلغك الأقلام ، ولا تتجرأ عليك الحكايات ، والأشعار.

ابق كما أنت ، تفرحنى ، وفى عينيك عثرت على سرّ وجودى .

غدًا موعدنـــا .

أكتب عنك ؟ ! ما الداعى ؟ وما الأهمية ؟

" أنت " فى حياتى ، وأنا فى حياتك ، هذا يكفى ، ويسعدنى .

غدًا موعدنـــا

لا تصالح لغتى ، ولا تعانق قلمى ، ولا تنزل ضيفًا على الصفحات البيضاء . عدنى فقط بشيء واحد . . أن تطلبنى للرقص ، معك مرة أخرى .

الأديبــة والصعلـوك

على استحياء أدهش قلمي المغامر ، أغمضت عيني طويلا . أطفات الأنوار المتطفله على دقات قلبي . . أسدلت الستائر لأحتجب عن عالم الصخب ، والتفاهة ، والإيقاع الرتيب . . على استحياء يصر على إحراجي ، أقرر أن أتحرر من صمتي . . أحاول أن أستدرج الكلمات ، أو ربما هي التي تستدرجني . . أحاول أن أحكم قبضتي على القلم ، أحاول أن أتذكر قواعد اللغة . . أحاول أن أنسى أنني منذ شهور ، مستنزفة الطاقة في رحلة وعرة ، طريقها مسدود . . محفوفة بالألغام والخطر . . والجحود . . أحاول أن أشكل على الورق ، لوحات ملونة المشاعر . . متدفقة الحلم . . لا مبالية بالعبث المتناثر في أرجاء الكون ، أحاول أن أغرى شهيتي بمذاق غاب عني كثيرًا . . أحاول اصطياد أحلى الكلام ، لأنقشه على الصفحات البيضاء . . أحاول التوحد بالنغمات التي تستثير شهوة الكتابة . . أحاول أن ألتحف بذكرى الرجال الذين مروا بحياتي ، وألهموني القصص والأشعار .

أناجي في سكون الليل لذة الإبداع ، أتحايل عليها . . أعلم جيدًا أن لذة الإبداع مثل الرجل ، عصي المنال ، متقلب المزاج ،

صعب المراس ، لا يأتى إلا فى التوقيت الذى يشتهيه هو . . وبشروطه هو ، وبأسلوبه هو . . أعلم جيدًا أن لذة الإبداع ، غير قابلة للترويض . . لا تستجيب للدعوات ، والتحايل ، لا تأخذها شفقة ، أو رحمة ، بكاتبة وأديبة تناجيها فى سكون الليل ، وتتوسل إليها أن تزورها خلسة لحظة من الزمن ..

أحاول أن أشرد . فالشرود جواز مرور مضمون لمدينة الكتابة ..

أحاول أن أتأمل . فالتأمل نار تشعل رغبة الكتابة ولاتحرقها .. أحاول ، وأحاول ، وأحاول . . وأحاول . . تسألنى محاولاتى ، لماذا كل هذا الجهد ؟ لماذا كل هذه « المعافرة » ؟ لماذا لا أترك الأمر يأتى بشكل تلقائى . . عفوى . . سلس ؟ تسألنى محاولاتى ، مَنْ يستحق كل هذه المحاولات اليائسة . من يستحق كل هذه المحاولات اليائسة . مَنْ يستحق تحدى الكلمات واللغة ؟ تسألنى محاولاتى ، من يستحق التذلل إلى لذة الإبداع ؟ أقولها فى تردد رقيق النبرة : « أنت تستحق » .

فى الحادى والعشرين من يناير ، اقتحمت حياتى الزاهدة فى الرجال . . فى الثالث والعشرين من يناير ، عزفت أصابعك على أوتار غابت أنغامها . . فى الثالث من فبراير ، أحسست أننى أشتاق إليك . . لا بقلبى . . فقلبى لم يعد كما كان قلبى . ولكننى أشتاق إليك ، بالظمأ المتراكم سنوات ، تعبت من حسابها ..

يا له من توقيت غريب . . وصعب ، اختاره القدر لتدخل حياتى . . قلت لك : " أشفق عليك . . فأنا امرأة كثيرة التقلبات . . حادة المزاج . . لا شىء يرضينى فى هذا العالم . . ولا رجل يملأ عينى على وجه الأرض . . امرأة أنا ليس لها أرض ولا سماء . . لا منتمية . . متطرفة المشاعر ، غريبة الأطوار . . والآن أكثر من أى وقت مضى ، أصبحت أكثر تقلبا ، وغرابة ، وحدة . * " قلت لى فى رقة متناهية : « أنا راض بكل شىء . . ابقى كما أنت . . لست أطلب منك أى شىء . . فقط أن أكون فى حياتك . . جربينى . . هل جربت وأنت الكاتبة ، والأديبة أن تدخلى إلى حياتك صعلوكًا ؟"

تغدق على أيامى بأحلى كلام الحب والغزل . . روحك الكريمة ، تحيط بالهواء الداخل صدرى . . قلبك الدافئ يحتضن أحزانى . . رقتك تعوض جفاف السنين الطويلة . . تهدينى شرائط الموسيقى التى أحبها ، وأقلام سوداء تسافر معى على الورق ، تهدينى الفهم ، وأحاسيس انقرضت فى هذا الزمن الردىء . . تحنو على ظمئى . . ترتجف إذا شعرت باضطرابى ، تسأل كل يوم عنى . . تمنحنى كل شىء يتدفق بالحب ، والخير والحنان ، وأنا لا أمنحك إلا تقلباتى ، وعدم اتزانى . كل هذا وتصف نفسك بأنك « مجرد صعلوك » ؟ .

كاتبة وأديبة أنا ، لكننى أحب الصعاليك . . وهل الكتابة ، والأدب شىء آخر ، إلا نوعًا من « الصعلكة » بين طرقات الخيال ، وأزقة الروح ، ودروب المحال ؟

لأننى كاتبة ، وأديبة ، أعلم أن « الصعاليك » هم الذين غيروا وجه التاريخ ، ومسار الحضارات . أحلى القصائد ، والروايات ، والقصص ، واللوحات وأروع الموسيقى ، والفلسفة ، أبدعها «الصعاليك » على مر العصور . .

لأننى كاتبة وأديبة ، أعلم أن « الصعلوك » ، كان دائمًا العاشق الجميل ، المجنون . هو « الدم الحامى » ، لا تستهويه ، أنصاف الأشياء ، وأنصاف النساء . ولا يستسلم لأحكام الموتى ، على الأحياء .

لأننى كاتبة ، وأديبة ، أؤمن أن العالم حتى يصبح أكثر عدلا . وجمالا ، وحرية ودفئًا ، لابد أن يفسح الطريق للمزيد من «الصعاليك » . . فى صمت بالغ الرشاقة تستمع إلى حديثى ، ثم تقول : « أديبة » وصعلوك ، ثنائى غريب ، مزيج يحيرنى يخيفنى . . كلماتك الرقيقة تطمئننى بعد الشىء . لكننى فى نهاية الأمر ، وبكل المقاييس " صعلوك " لا يستحق « أديبة » مثلكِ . . الجميع يقولون لى لست الرجل المناسب لها " .

إليك يا أحلى ، وأرق ، وأدفأ صعلوك ، يغار منه أجمل الأمراء ، وأعظم الملوك ، إليك أهدى أغلى ما يمكن أن أهديه كلماتى .. لاتخف .. دعنا نكتشف مصيرنا معًا . " أديبة وصعلوك " توليفة غريبة ، لم أعشها من قبل .. " أديبة وصعلوك " تركيبه فنية أبدعتها يد القدر .. " أديبة وصعلوك " عناق يحطم زيف العالم ، والفروق ، المصطنعة ،

بين البشر . . « أديبة وصعلوك » ، دهشة متجددة ، نهارات مفعمة بالغرابة وأمسيات سابحة فى فضاء لانهائى . « أديبة وصعلوك » .. جنون لذيد فى عالم فقد عقله .. « أديبة وصعلوك » .. عنوان مثالى لـ قصة ربما أكتبها يوما . أشكرك أيها « الصعلوك » ، الذى تقبلنى كما أنا . أشكرك على الدفء المتدفق من قلبك . أشكرك على عدم مطالبتى بأى شىء ، وعدم إلزامى بأية وعود معك . . أشكرك على والكرم الزائد فى زمن بخيل .. شكرًا على الفهم . وعلى كل شىء قلته ، وفعلته ، وعلى كل شىء لم تقله ، ولم تفعله . " أديبة وصعلوك " . . أنا وأنت . . ولتذهب كل الأشياء إلى الجحيم ..

السهر مع رجل غيرك

دعانى صديق قديم إلى العشاء . لم أتساءل بأى ثوب أذهب إليه ، وهل أرتب خصلات شعرى ؟ أم أتركها فى فوضاها المعهودة ؟ ما فائدة السؤال ؟ والأثواب كلها دون رؤياك ، باهتة الشكل والقوام . ما فائدة السؤال ؟ وخصلات شعرى تفقد – وهى غائبة عنك – سحر العنفوان .

دعانى صديق قديم إلى العشاء . لم يحيرنى اختيار المكان أو الزمان . فكل الأمكنة والأزمنة ، التى لا تجمعنى بك سواء .

استقبلنى صديقى القديم بدفء مؤجل سنوات ، وابتسامات ود معطرة الأشواق . أرد الدفء والود فى لامبالاة . كيف أبالى ، وأنت الذى يسكن خيالى ، ويهفو على بالى ؟ يسألنى صديقى عن حياتى ، وأحوالى ، وأخبار صحتى ، ومزاجى .

يطلب مشروبًا أحبه ، يقدم لى هدية ، يرسل نظرات الصداقة الممتزجة بالإعجاب.

بينما أنا سابحة فى ملكوت آخر ، اسمه " أنت " .

أشعر بالذنب . فالصداقة القديمة ، تحتم أن أهتم ولو قليلا، بهذا الرجل الجالس أمامى . أتذكر أننى فى وقت من الأوقات ، كنت معجبة به .

الليلة ، أتأمل ملامحه ، وأستمع إلى كلامه ، فأجدنى محايدة تمامًا تجاهه .

كيف تغيرت إلى هذه الدرجة ؟ كيف وصلت إلى هذا الحياد العاطفى ؟

لكننى لست مندهشة . منذ عرفتك ، وأحببتك ، وأنا محايدة تجاه كل الرجال ، أنت تملؤنى . بقسوتك ورقتك ، ترضينى ، وتفرحنى . " احتليت " كل خلية فى كيانى ، وامتزجت بدمى .

الرجال كلهم مقارنة بك ، مجرد أشخاص ، يروحون ويجيئون أمامى . هم راكدون و " أنت " نار متأججة . . هم خانعون ، و"أنت" ثورة عارمة . . هم عاديون فى كل شىء ، و" أنت" غير عادى فى كل شىء ، " أنت " جميل الوجه ، وجميل الخطوات ، وهم لايلفتون النظر ، أو السمع .

نفوسهم منكسرة ، ونفسك أنت تسكن العلياء . لك جسد ذو كبرياء عفيف ، وأجسادهم هم متآكلة لا تعرف الحياء .

فكيف بعد أن عرفتك ، وأحببتك ، يستهوينى أى رجل كان ؟ كيف بعد أن عرفتك ، وأحببتك ، لا يكون الحياد العاطفى هو ،

حالى مع كل الرجال ؟

يسألنى صديقى : " فيم تشردين ؟ " .

قلت : " لا شىء " .

برقة يهمس : " وحشتينى " .

قلت : " أشكرك " .

يسألنى : " ماذا بكِ ؟ لم أتوقع أن آراكِ هكذا " .

قلت : " أعذرنى .. أنا الليلة منفصلة عن العالم والبشر والأشياء .. "

قال : " معرفتى بك تؤكد أنك مشغولة القلب . . أحكى لى عن الفارس الجديد الذى أخذك من العالم ، والبشر ، والأشياء ، وجعلك تشردين وأنتِ معى ! ! "

فقط هذه اللحظة ، حين سألنى عنك ، بدأ اهتمامى بالجلسة . ظهر البريق فى عيونى ، انتعش الدم فى عروقى .

فقط حين سألنى عنك ، بدا المكان جميلاً . وأصبح هناك مبرر للحديث ، والابتسام ، وتناول العشاء .

لست أدرى كم مضى من الوقت ، وأنا أتكلم عنك . قلت كل شىء ، ولم أقل شيئًا . حكيت عن كل شىء ، ولم أحك شيئًا . فأنت ،

رجل لا يقال ، ولا يحكى عنه . أنت مثل الحياة ، سر كبير ، يظل كامنًا بالقلب ، أعيشه ، ولست أستطيع الإفصاح عنه .

لست أدرى كم مضى من الوقت ، وأنا وصديقى ، نشرب نخب اشتياقى إليك ، وولعى بك .

قال صديقى : " أول مرة آراكِ بهذا الحب " .

قلت : " وآخر مرة . إنه الرجل الذى لا تمن به الحياة إلا مرة واحدة . إنه عابر السبيل الذى ينزل ضيفًا ليلة على البيت ، ويرحل بعد أن يقلب حال الأشياء . . إنه الألم اللذيذ الذى يمنحنى الحق فى الحياة . وهو الظمأ الذى ينتظرنى بعد كل رشفة إرتواء " .

يرمقنى صديقى بنظرات متداخلة المعانى .. يقول : " بداخلى مشاعر متناقضة . أحس بالغيرة . طالما تمنيت أن أكون أنا مَنْ يفجر لديك هذه الأحاسيس . لكننى أيضًا أحس بالشفقة عليك . حب كهذا يمكن أن يدمرك " .

قلت : " إنه قدرى ، لا أملك الهروب منه ، حب عمرى المؤجل طوال العمر . ليته يدمرنى حتى أهتدى إلى سر وجودى " .

يسألنى : " لماذا هو بالتحديد ؟ أهى الفرحة بعد أن فاض قلبك بالأحزان ؟ " .

أقول : " مجرد وجوده معى تحت سماء واحدة ، يغمرنى بفرحة غريبة المذاق . هو يفرح عقلى ، ويفرح قلبى ويفرح خيالى . الفرح مع غيره مستحيل . لكن هناك أكثر من الفرح معه . كل شىء عنه ، ومنه ، حكاية أعيشها مثل الأساطير . لست أدرى أين الخيال فيها ، وأين الحقيقة . كل لقاء معه مصير مجهول . إذا شاء يدخلنى إلى النعيم ، وإذا تعكرت مشيئته ، أرسلنى إلى الجحيم . معه أنا لست فى علاقة مع رجل واحد . إنه رجل جديد كل يوم " ..

يقاطعنى صديقى : " ولأنك امرأة متجددة كل يوم ، يلائمك جدًا هذا الرجل " .

ابتسم ويأخذنى الشرود إليك .

يتركنى صديقى فى شرودى لحظات ثم يسألنى : "ما اسمه ؟ ما اسم ذلك الرجل الذى لا تمن به الحياة إلا مرة واحدة ؟ " .

أفيق من شرودى ، وأنظر إلى صديقى .. لكن عيونى لا تلتحم إلا بملامحك أنت .

يكرر السؤال : " ما اسمه ؟ "

قلت : " اسمه مكون من أجمل الحروف ، مشتق من أنبل الغايات ، لاسمه رنين الموسيقى ورقة الأشعار ، وسلاسة الماء .. بين كل حرف وآخر ، وهج ، وحكمة ، وشىء من الأسفار " .

يقول صديقى : " ألن تبوحى باسمه ؟ "

قلت : " ماذا يفيد البوح مع رجل أشبه بالأساطير . . ؟ ماذا يجدى البوح مع رجل يتجدد كل يوم ؟ " .

يصمت صديقى لحظات ، يكاد ينطق بشئ ، لكنه يتردد ..

يصب لى كأسا أخرى ..

فى صمت أرتشف المشروب . . أقول : " تصور ، هذا المشروب تذوقته لأول مرة معه . جعلنى أحب هذا المشروب الذى أصبح ثالثنا فى أمسيات الوصال " .

يقول صديقى : " لم تتخيلى أن تشربيه مع رجل آخر . . أليس كذلك ؟ " .

قلت : " أحس أنه مشروب مختلف " .

يقول : " معك حق . . مذاق الصداقة غير مذاق العشق " .

قلت : " صحيح . . تصور أن كل شئ أمارسه معه له طعم مختلف ، الهواء الذى أتنفسه معه ، ليس هو الهواء . والماء فى حضوره ليس كالماء . لا الأشكال هى الأشكال ، حين أكون معه ، ولا الألوان هى الألوان . وحين تلمسنى يداه ، تهجر الأرض مدارها ، وعن الأنظار تحجب السماء " .

يهمس صديقى : " أحسدك وأخاف عليك من هذا الطوفان " .

تسحبنى تنهيدة عميقة ، أقول دون كلام : " إنه الفناء الذى يبعثنى من جديد " .

تركت صديقى القديم ، وأسرعت إلى بيتى ، لأختلى وحدى بذكراك .

الليلة ، كم أنا فى حاجة إلى صحبتك . كم أحن إليك ، وأتمنى لو ينتهى الليل وأنا بين يديك .

أخرج للسهر والعشاء مع غيرك ، فإذا المساء كله كان معك . أريد أن أحكى لك عن هذا الموقف الغريب .

لابد أن تعرف ، أنك ألغيت كل الرجال فى نظرى . أنت مَنْ أحمله على إمتداد قامتى ، وأنت مَنْ أشتهيه .

يرن الهاتف . .

يفاجئنى صوتك الدافئ فى لهفة متسائلاً : " أين أنتِ ؟ حاولت الاتصال بكِ أكثر من مرة ".. تهزنى المفاجأة ، والفرحة .. أقول : " دعانى صديق قديم إلى العشاء " .

قال : " يا لها من مصادفة . . أنا الآخر سهرت الليلة مع صديقة قديمة عادت من السفر . . تصورى ، قضيت الوقت كله أكلمها عنكِ دون أن أقصد . . كنت أشرب معك أنتِ ، وأتناول

الطعام معك أنتِ . . تعجلت انتهاء السهرة لأكلمك . . " .

أقاطعه : " أريد أن أراك . . لابد أن نلتقى الليلة . . أنا قادمة إليك " .

بمزيج من الدهشة والترقب يسألنى " أحقًا ستأتين ؟ أنا فى انتظارك " . لم أشعر بنفسى ، إلا وأنا أقود سيارتى ، فى الطريق إليه . . يا كل العمر المؤجل من الفرح ، الليلة أزف إلى عينيه .

ما أحلى أن ينتهى الأجل الليلة .

أنت والمرأة الأخرى

تلك المرأة الساكنة قلبك ، المطلة من ملامحك ، المقيمة فى دمك ، كم أغار منها. قبل أن أحبك ، كنت أسخر دائما من مشاعر الغيرة ، وأعتبرها سذاجة لا تليق بأمرأة مثلى . أنا لست بساذجة ، لكننى أحترق غيرة عليك.

نلتقى أنا وأنت .. كل شئ مهيأ لنا .. غموض الليل ، ورقة الهواء ، وعذوبة الأنغام . فاضت بقلبى الأشواق ، وأنت كعادتك عاشق جميل ، يمنحنى أحلى الكلمات. لكن تلك المرأة الساكنة قلبك ، المطلة من ملامحك ، المقيمة فى دمك ، تتدخل بيننا ، تعكر صفو الوصال.

فى كل لقاء ، أحسها ، أشم رائحتها. أنظر إليك ، أراها هى تتحدانى ، وتسألنى الرحيل عنك. ،لست أدرى ، هل أرحل أم أبقى؟

فى كل لقاء ، أتمنى لو تأتينى دونها . لكنها ممتزجة بظلك ، وتسبق خطواتك إلى جلستنا.

فى دهشة تسألنى : " لماذا أنتِ متعكرة المزاج ، ومازلنا فى أول الليل؟"

بماذا أجيبك ؟

هل أعترف بأننى أغار عليك ؟ هل أعترف بأننى أضع نفسى ، فى مقارنة مع تلك المرأة الأخرى ؟ هل أعترف بأننى أسيرة الشعور الذى طالما سخرت منه ؟ يمنعنى كبريائى من الاعتراف.

بالأمس التقينا .. وسامتك مبهرة الضياء ، حديثك ساحر ، يطوف بى بعيداً عن الزمان ، والمكان . تدعونى عيناك للارتماء فى بحرهما .. ألبى النداء.

تأخذ يدى بين يديك وتقول : " مالك هذه الأيام أصبحتِ كثيرة الشرود ، والتوتر . ماذا بكِ؟"

لا أستطيع إخفاء مشاعرى الليلة .. لابد من أن أصارحك ، وليذهب كبريائى إلى الجحيم.

قلت : " أغار من تلك المرأة الأخرى ، التى اقتحمت حياتك .. لا أستطيع أن أحتملنا نحن الثلاثة معاً .. خلصنى من عذابى ، قل لى ، أتحبها؟ "

مندهشاً تقول : " أحبها ؟ ما هذا العبث الذى تتحدثين عنه ؟ ألا تعرفين مَنْ أحب ؟ لا أتخيلك تغارين حقاً.. ؟ "

أقول : " الغيرة تكاد تذهب بعقلى . وخيالى يصور لى أشياء كثيرة .. "

تقترب أكثر منى ، بحنان تقول :" أعرف خيالك الجامح . ولكننى أحبك أنتِ .. أنتِ الحب الذى عشت سنوات عمرى ، أبحث عنه .. أنتِ المرأة التى ادخرت لها كل مشاعرى ، وأسرار فرحتى.

صالحنى حبك على عمرى الضائع وقسوة الأيام ، لست أتمنى شيئا الآن ، سوى أن تبقى معى حتى آخر العمر ."

هل كان لابد من اعترافى بالغيرة ، حتى تُسمعنى كلمة الحب؟

وأسألك : و"لكن ماذا عنها هى؟"

تقول : "هى صديقة ، لا أكثر ولا أقل".

قلت : "اهتمامك بها أكثر من الصداقة ، لم لا تعترف بالأمر؟"

تقول : "أى أمر؟"

قلت : "أنك تحبها وهى تحبك"

تقول : "ماذا حدث لك ؟ لماذا لا تصدقيننى؟"

قلت : "ربما تحبنا نحن الاثنتين فى وقت واحد ، ربما لا تدرك أن اهتمامك بها يتعدى حدود الصداقة".

بانفعال تقول : "لا أستطيع مجاراتك فى هذه المناقشة. وأرفض أن تكون موضع اهتمام" .

قلت : " وأنا أرفض أن تشاركنى فيك امرأة أخرى ".

تسألنى : "ماذا تعنين؟"

قلت : " إما أنا ، أو هى "

تقول : " إنها صديقتى ، كيف تطلبين منى أن أنهى علاقتى بها " .

قلت : " لو كانت مجرد صديقة كما تزعم ، لسهل عليك التخلى عنها ".

تقول :" إنها صديقتى .. لا أستطيع الاستغناء عن وجودها "

قلت : " لست أؤمن بالصداقة بين الرجل والمرأة " .

تقول : " لكننى رجل مختلف ، وهى امرأة مختلفة ".

أقول : " وأنا امرأة عادية .. تقليدية أليس هذا ما تود أن تقوله " .

تقول : " كلامكِ الليلة يدل على ذلك ".

قلت : "لن استطيع احتمال تلك المرأة الأخرى أكثر من هذا الحد. إننى أخيرك إما أنا ، أو هى .. إما صداقتها ، أو حبى .. "

تركته وحيداً مذهولاً من قرارى المفاجئ .. أنا أيضاً ، لم أكن مستعدة لمثل هذا القرار. من حقى أن أغار عليه . من حقى ألا تشاركنى فيه امرأة أخرى.

يتهمنى بالتقليدية ، لأننى لا أعترف بصداقته مع المرأة الأخرى . غريب أمر الرجال .. يريدون كل شيء . يرغبون جميع النساء . ولديهم تفسيرات لكل ما يفعلونه . ترى لو كنت أنا فى مكانه ، ماذا سيفعل ؟ لو كان فى حياتى رجل صديق ، لا أستطيع الاستغناء عن وجوده ، كما الحال مع صديقته ، ماذا سيكون شعوره ؟

أحياناً يؤنبنى ضميرى ، ربما أكون قد قسوت عليه ، ربما أكون قد بالغت فى الأمر ، أو أكون قد جرحته بشكوكى . لكن ما هى إلا لحظات ، وأطمئن . فهو الذى بدأ القسوة ، بإقحامه تلك المرأة الأخرى بيننا . هو الذى جرحنى ، بإصراره على عدم التخلى عنها .

مر وقت طويل ، ونحن الاثنان فى صمت . هو ينتظر مكالمتى ، وأنا أنتظر عودته ، لا هو يتكلم ، ولا أنا أعود .

مر وقت طويل ، والحياة بدونه أيام متشابهة العبير ، والألوان . أفعل كل شيء بدقة فى موعده ، أروح وأجيء ، وأتكلم ، وابتسم لكننى ذابلة الملامح ، بقلبى حزن ، لا يُذهبه إلا وجوده معى .

لن أعود .. كل شيء أهون ، من امرأة أخرى تشاركنى فيه ، باسم الصداقة . لن أعود . رغم أننى أدرك أنه حب عمرى الماضى ، والآتى .

الرسالة الأخيرة

أكتب رسالتى الأولى والأخيرة إليكِ

حين تقرأينى ، سأكون محلقًا فى الهواء ، مسافرًا إلى أرض لا تعرفك ولا تعرفنى . مسافر إلى بلاد لا تحمل لنا ذكريات . أكتب رسالتى الأولى والأخيرة إليكِ . اقرأينى حين يهل المساء ، فخيوط الليل أكثر مغفرة . اقرأينى لا بعينيكِ ، ولكن بقلبكِ الذى منحنى فى ليلة حب العمر .

اقرأينى فى لحظة هاربة من الزمان ، والمكان . تمنيت أن أقضيها معكِ .

منذ لقائنا الأول ، أدركت نوع الحب الذى يجمعنا . سافرت علنى أشفى منكِ ، لأعفى قلبينا من عشق لا يرويه لقاء ، لا يشبعه وصال ، لا يداويه إلا الموت . سافرت لأحرركِ من وعود لم تنطق بها شفتاكِ ، وعسى الحرمان منكِ وأنتِ بعيدة ، أهون من الحرمان وأنتِ قريبة .

جربت معكِ كل شيء ، وفشلت . ولم يتبق لي إلا الرحيل . أكتب إليكِ لأنني لا أجيد لحظات الوداع . هل تتذكرين لقاءنا الأول ؟ .

كنتُ أرتدي حسرة أمنيات تزورني دومًا في الخريف ، وكنتِ ترتدين لون البحر .

شيء ما دفعني إليكِ .. شيء ما جعلك تتوقفين عن خطواتك . انطلقت بيننا الكلمات ، كأننا كنا على ميعاد . أعجبتيني منذ اللحظة الأولى . كم من المرات استدرجتني الانطباعات الأولى ، إلى ما لم أتوقعه ، أو أتخيله . لكنني لا أتعلم وأطيع ما تنبئني به .

إنطباعي الأول عنكِ يفجر حُب فضولي ، ويوقظ في قلبي رعشات دافئة نسيتها منذ زمن . أعرف جيدًا تلك الرعشات التي تهز القلب . إنها بدايات أفراح عصية المنال ، وعبير أشجان تأنس لها الروح .

سألتيني ؛ " هل نكون أصدقاء ؟ " .

همست بيني وبين نفسي : " أنتِ أجمل من أن تكوني صديقتي " .

" صديقتي " .. امرأة مثلك محال أن تجمعني بها الصداقة .. فأن تكوني صديقتي ، معناه نوع من الحياد العاطفي .. وكيف أكون محايدًا تجاهكِ ، وكل ما فيكِ يقتحمني دون منطق ، ودون إعتبار لوقاري المعهود ، ؟ وإذا أصبحتُ على حياد مع شفتيكِ ، فأين أذهب من عينيكِ ؟ ..

حينما أقابل امرأة وأبقي كما أنا في حالة آمنة ، سالمة ، أقول لها ، " كوني صديقتي " .. أما " أنتِ " ، الخطر اللذيذ الذي أبحث عنه بين النساء . أنتِ البركان المشتعل ، أهفو للارتماء فيه ، وأنتِ ومضة الجنون ، أتوق إليها ليصبح للتعقل معنى ، ومُبرر .

على ورقة شجر صفراء ، كتبت لكِ رقم هاتفي . بلمسة حانية ، أخذتِ مِني القلم ، وعلى خطوط يدي ، كتبتِ لي رقم هاتفك .

قلتُ لنفسي لو مر المساء ، دون أن تكلميني ، فسوف ألفِظك من خيالي . دقت الساعة منتصف الليل ، وجائني صوتكِ المفعم بالأسرار .

ربما تتساءلين ، لماذا أعود بكِ إلى الماضي . . . لم لا أكتفي بكلمات الوداع ؟

أحتاج أن أتذكر البدايات ، لأحتمل النهاية .. أحتاج أن أكشف ذلك العاشق داخلي ، الذي منعك كبرياؤك أن تفكي رموزه . يدهشك رحيلي المفاجيء .. أعرف .كيف أرحل و " ما بيننا " في أحلى حالاته ؟ كيف أرحل ، وملامِحك الشهية مقيمة على جلدي أينما ذهبتِ ؟ ..

حاولي أن تفهميني ، وتدركين المأزق الذي وقعنا فيه ، أنا وأنتِ . " ما بيننا " شيء غريب .. علاقة ليس لها عنوان .

فيها من الحب ،وليست حبًا .. فيها من العشق ، وليست عشقًا . كل امرأة عرفتها قبلك ، كانت دون أن أدري تمهدني لكِ . وعرفتكِ ، اكتشفت أن كل تجاربي لا تسعفني ..

ذات مساء تصالحنا بعد طول خصام . لا أدرى ماذا يحدث للدنيا ، حين يرضى قلبكِ عنى ؟ ماذا يطرأ على الكون ، حين تنساب الرقة بينكِ وبينى ؟ .. حين نتصالح ، يصبح الهواء أكثر عذوبة ، والماء أكثر شفافية ، والناس أقل خشونة ..

ذات المساء قلتِ لى " ما بيننا " يحيرنى ، يتحدانى .. أصارعه ، ويصارعنى .. أنا الآخر ، فى حيرة ، وصراع .

يا لسخرية الأقدار .. نتعثر معًا ، تطول فترات خصامنا ، ليس لغياب الحب . ولكن لحضوره أكثر مما نحتمل . وأكثر مما تؤهلنا تجاربنا له ..

كنتِ تتعمدين جرحى .. وكان يدهشك أننى لا أغضب .. كنت أقابل الجرح منكِ ، بنفس صافية . أفهم جيدًا دوافعِك .. كنتِ تعاقبينى لأننى الرجل الوحيد الذى أحبكِ دون مقابل .. عطائى كان يخيفك .. ولديكِ قدرة أحسدك عليها ، فى تحويل كل فضائلى إلى عيوب . لم تصدقى أن هناك رجلاً يعشق بمثل هذا الزهد ، والسمو . أن أعطيكِ ، كانت فرحتى الوحيدة .. وتلك أيضًا ، كانت خطيئتى الوحيدة . ربما لو كنتُ فكرت فى الأخذ ، لسارت الأمور بيننا أكثر سلاسة .. أنتِ المرأة الوحيدة معها فقدت ذاتى ، وحين فقدتها ، وجدتها أحلى ما تكون .

حين كنت أسألكِ لِم قسوتك .. كان يجيئنى ردك " القسوة قناع أرتديه ، لأخفى مشاعرى نحوك ، وأحياناً أكرهك لأنك الحب الذى عشت أتجنبه ، وأهرب منه " .

أنا أيضًا كنت أكرهكِ أحيانًا . كنت تثيرين كراهيتى ، ليس عندما تكونين قاسية . ولكن حينما تصبحين رقيقة . تزداد كراهيتى لكِ ، حين تمنحينى ليلة حُب ، تشعرنى أن ما فات قبلكِ وهم . كيف تأتيك الجرأة وتلغين كل النساء قبلك ؟

وكنت أكرهكِ ، حين أعترف بينى وبين نفسى ، أننى لا أستطيع الاستغناء عنكِ . أنتِ المرأة الوحيدة ، التى أشعرتنى بأن الأسر بين يديها ، ضرورة لبقائى حرًا . سافرت لأهرب من هذا التناقض المؤلم .

أكتب رسالتى الأولى والأخيرة إليكِ .. تذكرينى فى موسم الشتاء ، حين كنا نسير تحت المطر .. تذكرينى فى الربيع ، حيث كنت أهديك الورد ، والحنين . حين يهل الصيف ، تذكرى سهراتنا الممتدة حتى الفجر . تذكرينى فى الخريف ، حين التقينا أول مرة .. سقطت أوراق الماضى ، وتهيأت لموسمِك أنتِ ..

أكتب رسالتى الأولى والأخيرة إليكِ .

لقاؤنا الأخير ، كان منذ أيام .. كنا نحتفل بيوم ميلادكِ ..

وقت طويل وأنا أرتب لهذه اللحظات الأخيرة بيننا .

تجلسين بجانبى نجمة مُبهرة الضياء .. مُنجذب إليكِ بكل حواسى وارتباك قلبى .. مفتون بكِ إلى حد الشقاء ، أتأملك كأنها المرة الأولى ، أستمع إلى كلماتِك كمَنْ أصابه مس من السِحر ..

سألتنى .. هل استحق كل هذا الحب المطل من عينيكِ ؟

بابتسامة هادئة قُلت " بالطبع لا تستحقين " .

قلتِ لى : " كم أنت عنيد "

قلُت : "ليس عنادًا وإنما حكمة .. فما المتعة حيث يذهب الحب لمنْ يستحقه ؟ تنفرنى العواطف المضمونة ، ولا يستهوينى إلا السفر فى الطريق الخطر" .

ذلك المساء الأخير ضحكنا كثيرًا .. رقصنا على أنغام لا تطفئ نهم الحنين .. ذلك المساء قدمت لكِ قلبى ، هدية يوم ميلادكِ .. وها أنا مُحلق فى الهواء بلا قلب .

بالمناسبة ما أخبار قلبى لديكِ ؟ .

أكتب رسالتى الأولى ، والأخيرة إليكِ .

إلى أين يأخذنى الهواء .. لست أدرى .. ولستُ منشغل البال . مصيرى بعدك لا يؤرقنى .

فأى مصير بدونِك نوع من الانتحار . والإنسان لا يفكر فى الانتحار ، ولكنه يفعله .. أى مصير بدونِك ، دور متقن الأداء فى رواية عبثية أتفرج عليها ولا أحياها ..

لماذا مع اقتراب النهاية ، تتضح رؤية الأشياء مُفعمة بالبريق ؟ .

بعد كل لقاء ، أترككِ متلهفًا إلى موعدى المنتظم مع الحيرة ، والعذاب . لم يحدث أبدًا ، أن التقينا ، ومرت الليلة فى هدوء ، وسلام .

أتعذب حينما تشقيني .. وأتعذب حينما تسعديني ..

لا أستطيع العيش معكِ ، ولا أستطيع العيش بدونك .. لست أحتمل منكِ الشقاء ، ولست أحتمل منكِ النعيم .. أخطاؤك تنفرني ، وهي نفسها أخطاؤك التي أشتهيها ..

وأخفي عنكِ حيرتي .. وعذابي ..

عذابي ملكي وحدي . عذابي سر أودعه الله في قلبي ، ليميزني عن بقية الرجال .

ترى ، هل حقًا أحببتني ؟ في أمسيات لا تعرف إلا عربدة الأشواق ، كنتِ تهمسين لي : " أحبك " ، وفي آخر " عيد حب " أمضيناه معًا ، قلتِ لي على أنغام من الشجن .. " كل عيد حب وأنت حبيبي " .. لو كنتِ تعرفين كم تدمرني كلمات الحب الممتزجة بشفتيكِ . دمار لذيذ يحببني في الموت ، ويغريني بالحياة في اللحظة نفسها .. ترى هل حقًا أحببتك ؟ هل حقًا ، كنتِ إمرأة العمر ، الذي يتشبث بالحياة لآخر مرة ؟ !

حتى هذه اللحظة لا أعرف .. كل ما كنت أدركه ، أنني مدفوع إليكِ بقوة أكبر من فهمي واحتمالي ..

حتى هذه اللحظة لا أعرف أكنتِ جنتي أم ناري ؟ سجني كنتِ أم خلاصي ؟ حتى هذه اللحظة لاأدري ، هل كنتِ عقابًا من القدر ، لأنني غير كل الرجال ، أعيش في مملكتي ، وحيدًا ؟ أم كنتِ مكافأتي لسباحتي ضد التيار ؟

أكتب رسالتى الأولى والأخيرة إليكِ .

وربما التقى فى السفر ، بالمرأة التى تعوضنى عذابى معكِ . ربما أقابل كما يقول صديقى : " المرأة المناسبة " .. أو " المرأة المريحة " ، أو " المرأة التى تستحق " .. مشكلتى أننى لم أكن أريد " المرأة المناسبة " . كنت أريدِك أنت . ولم أكن أريد " المرأة المريحة " . كنت أريدِك أنتِ .. ولم أكن أريد المرأة التى تستحق ، كنت أريدِك أنتِ ..

نساء العالم ، لا يحركن شيئًا داخلى . عذابى أننى أدرك ، أنكِ امرأة لا بديل لها .

أكتب رسالتى الأولى والأخيرة إليكِ .

سوف أقلق عليكِ كثيرًا .. مَنْ سيحبك بعدى ؟ مَنْ سير عاكِ بعدى ؟ مَنْ يتحمل عنادكِ وقسوتكِ ؟ مَنْ يحلو له خطاياك ؟ وكيف ستمضى بكِ الحياة ؟ أخاف عليكِ من غدر الأيام وتقلبات الزمن .. كم كنت أود أن أكون بجانبك .. لكن لا مفر من الرحيل عنكِ ..

سوف أشتاق إليكِ كثيرًا .. ولكن كيف أشتاق ، لمَنْ أتنفسها ، وأتنهدها ، واخترتها محطتى الأخيرة ، وخلاصى الأخير .

بعد رحيلى ، لكِ أن ترتاحى . لم يعد هناك ذلك الرجل العاشق ، إلى حد النزف .. انتهت اللعبة العاطفية التى أجهدت قلبينا . انتهت اللعبة ولم نعرف ، مَنْ كان المنتصر ومَنْ كان

المهزوم . فى الحب ، يا حبيبتى ، كلنا نخسر ، والحب وحده يفوز .

أكتب رسالتى الأولى والأخيرة إليكِ ..

مَنْ هى تلك المرأة الفدائية ، التى يستهويها رجل بلا قلب ؟ عشت عمرى معذبًا بقلبى اللا منتمى .. والآن بعد أن منحتُه لكِ فى يوم ميلادك ، أرتاح وأهدأ .

أوصيكِ خيرًا بقلبى ، فهو طفلى الجميل المدلل .. كان يأمر ، فأجيب .. ينادى ألبى النداء .. قلبى طفلى الوحيد .

أكتب رسالتى الأولى والأخيرة إليكِ ..

حين تقرأينى سأكون مُحلقًا فى الهواء .. مسافرًا إلى أرض ، لا تعرفكِ ولا تعرفنى . مسافر إلى بلاد لا تحمل لنا ذكريات .

اقرأينى حين يهل المساء ، فخيوط الليل أكثر مغفرة .. اقرأينى لا بعينيك ولكن بقلبكِ الذى منحنى فى ليلة ، حب العمر .. اقرأينى فى لحظة هاربة من الزمان ، والمكان تمنيت أن أقضيها معكِ ..

أوراق الخريف

بينها، وبين « أوراق الخريف » عبير يضل رحيق الأزهار ... بينها ، وبين أوراق الخريف ، حكايات ، ونغم ، وأسرار .. تحتمل فى عناء مواسم العام ، من أجل موسم الخريف ، صديقها الحميم الوحيد . . تنتظر فى حنين « أوراق الخريف » تبوح لها بأحلامها الضائعة ، وعليها تكتب وصيتها الأخيرة .

تجلس وحيدة فى المكان ، الذى أصبح جزءًا من ملامحها ، نافذًا كالخنجر فى عمرها . تجلس وحيدة إلا من صوت « أوراق الخريف » وهى تتساقط ، مثلما تتساقط أفراحها ، واشتياقاتها .. لا تدرى هل تلملم أوراق الخريف ، أم تلملم الأفراح والاشتياقات ؟

« أوراق الخريف » والذكريات ، والمكان النافذ كالخنجر فى العمر ، أشياء تفوق احتمالها ..

هنا ، فى هذا المكان ، وفى إحدى ليالى الخريف ، التقت به لأول مرة .

هنا ، فى هذا المكان ، وفى إحدى ليالى الخريف ، التقت به لآخر مرة .

تنسى كل الأشياء ، ولا تنسى تفاصيل أول لقاء .

تنسى كل الأشياء ، ولا تنسى تفاصيل كل لقاء .

كيف لامرأة أن تنسى ، الرجل الذى شق قلبها نصفين .. نصف له ، ونصف يهفو إليه ؟ كيف لها أن تنسى الرجل الذى سكن القلب ، يأمر ، وينهى ، ويتدلل ، كأنه صاحب القلب ؟ كيف لامرأة أن تنسى الرجل الذى بسماع اسمه ، يتغير لون عينيها ، تتبدل كيمياء جسدها ، ويتحول الكون بأسره إلى مدارات مسحورة ؟

تذكر كل شيء كأنه الأمس القريب ...

كانت وحيدة فى المكان ، تتأمل غروب الشمس ، وهو يناجى « أوراق الخريف ».

لا تدرى ، حتى بعد كل هذه السنوات ، من أين ظهر فجأة .. اقترب منها .. سألها شيئاً .. وفى لحظات كانا يجلسان معًا ، يتناولان مشروبًا لا يعطى للوعى فرصة للتراجع ، ويتحدثان فى سخرية ، وانسجام ، عن الفن ، والحياة ، والسحر الكامن فى أوراق الخريف .

قالت له « أعشق الخريف ، وحينما أرى أوراقه المتساقطة ، أحس بشجن غريب يمتلكنى " ...

سألته : « هل تحب الخريف »

قال : « إنه موسمى المفضل »

قالت :« كنت أتمنى لو يبقى الخريف طوال العام »

قال : "لو بقى طوال العام ، لما أحسسنا بجماله" .. لا تدرى ، هل حبه الجارف للومضات العابرة ، التى تمسنا بسرعة ، وتمضى تاركة الدهشة ، والحسرة ، هى سبب فراقهما قبل الأوان ؟

فى أحد لقاءاتهما ، انساب فى الهواء لحن أغنية « أوراق الخريف » . الموسيقى ، تتخلل مسام الروح ، توقظ أحاسيس منسية ، تداعب أمنيتها القديمة ، أن ترقص على لحن « أوراق الخريف » تعشق هذا اللحن ، على نغماته تطير إلى سماء المحال . حين تسمع أغنية « أوراق الخريف » تتحول هى نفسها إلى أغنية ، إلى نجمة ، إلى موجة مسافرة ، على بحر من الأشجان .

سألها : "فيم تشردين" ؟

قالت : "كلما سمعت هذا اللحن ، انتابتنى رغبة ملحة فى الرقص" ...

ارتشف الرشفة الأخيرة من المشروب ، أطفأ سيجارته . نهض واقفا ، مد يده إليها . وقال : "أتسمحين لى بهذه الرقصة ؟"

قالت : "ممنوع الرقص فى هذا المكان" .

ابتسم قائلاً : " أحب الممنوعات " .

وسط دهشة العيون ، أخذها إلى النغمات الراقصة .. احتفى بها اللحن ، استضافتها يداه ، احتوتها عيناه .. منحها فى لحظات أزمنة دافئة الحنين .

منحته كل الإجابات لأنه لم يسلها شيئًا .. قبله ، كانت تبحث عن رجل عاشق ، لا يحاصرها بالتساؤلات . لا يراقب نظراتها ، لا يتجسس على تنهداتها .. واحد ، لا يطلب مذكرات تفسيرية عن الماضى ، وتقارير دفاعية عن الحاضر .

رجل يحبها ، لأنها غير قابلة للامتلاك . سواء له ، أو لأى رجل غيره .. على خطواته الراقصة ، أحست أنه ذلك الرجل .

منذ الرقصة الأولى ، والأيام تمضى معه ، رشيقة الخطى . تشعر كأنها فى منام ، أو فى زمن لاينتمى إلى تاريخ العشاق .. «هو» ذروة الحقيقة فى أبهى صورها .. و «هو» ذروة الوهم فى أجمل أثوابه .. أتراها ، لهذا ، لم تسله مرة عن مصيرها معه . الحقيقة ، والوهم ، كلاهما لا مصير له .

تبتسم وهى تتذكر أحد حوارتهما .. قال لها : « بالأمس أنجب أخى ولدًا .. حلم حياته أن يصبح أبًا ، لكننى أومن أن الإنسان الحقيقى ، المتحرر من الأوهام ، ليس له امتداد إلا ذاته هو .. »

قالت له : « قليلون جدًا مَنْ يفكرون بهذه الطريقة ، أنت تسبح ضد التيار » .

قال بهمسات حانية : " ألا تحبين السباحة ضد التيار ؟ أنا أسبح ضد كل الأشياء وضد كل البشر .. إلا أنتِ .. أنتِ التيار الذى أستسلم له . يحملنى كما يشاء حينما يشاء ، لست أقاومه . أعرف أنه سيأخذنى إلى مرساى وشاطئى .. أنتِ مدينة الماء التى أبحث عنها .. إنى سحابة عابرة بأفق السماء ، طالت غربتى وأهفو إلى بيت على أرضك " ..

قالت له : "ليس يعرف أحدنا الآخر بالقدر الكافى" . يأخذ يدها بين يديه ويقول : " لماذا تصرين على تمثيل دور ضد طبيعتك .

لستِ أنتِ المرأة التى تزن المشاعر بالزمن .. لستِ أنتِ المرأة التى تقول ، لا يعرف أحدنا الآخر بالقدر الكافىء "القدر الكافى"، فى الحب ، أكذوبة كبيرة . هل هناك قدر كاف ، من العمر للموت . "القدر الكافى" إنه تعبير لا يعترف به العشاق فى الحب ، نظرة واحدة ، همسة واحدة ، لمسة واحدة ، هى " القدر الكافى " ، لأن يشتعل البرق" .

قالت له « تتكلم عن الحب . الحب ، وهم كبير ، وعاطفة مستهلكة تلوكها القلوب ، والألسنة . أنا لا أبحث عن الحب .. أبحث عن عواطف جديدة ، عن أفراح طازجة ، عن حزن لم تتخيله الأشجار ، والنجوم . أبحث عن رقصة على أمواج البحر تثبتنى فى الكون .. أبحث عن عاطفة ضد الملل .. لديها مناعة ضد الذبول ، والفتور .. عاطفة تتفتح مع إشراقة الشمس وابتسامات القمر ..

تكلمني عن غربتك . أنا الأخرى غريبة ، حتى عن نفسى ، وتنهداتى وأنفاسى وشكل ملامحى ، ولون عيونى .. أبحث عن وطنى ، وبيتى . قد يكون ورقة شجر ، قد يكون فى عمق البحر .. قد يكون أنغام الشجن .. قد يكون خيرًا أو شرًا ، لكنه بيتى .. لا أريد الانتماء إلى انسان . لا أريد الارتباط بأشياء قابلة للزوال . أهفو إلى أشياء لا تفنى .. لا تزول " يأخذه شرود عميق ثم يقول : "غربتك هذه لا وطن لها ولا بيت لها .. لا يوجد رجل واحد فى العالم . يستطيع أن يزيل هذه الغربة .. لا يوجد رجل واحد فى العالم ، يستطيع أن يمنحك العاطفة التى تبحثين عنها " ..

فى حنين متردد الإفصاح ، تقول له : « حينما رقصنا معًا لأول مرة ، على لحن أوراق الخريف ، أحسست أن بداخلك هذا التوق لمشاعر لم يعرفها البشر من قبل " ..

قال : " ظننت أن كل أيامنا التى عشناها معًا . بها شىء مما تبحثين عنه .. حاولت جاهدًا أن أقترب من المرأة الوحيدة التى أحبت اختلافى ، وسباحتى ضد التيار . كلما اقتربت منكِ ، تهربين طوال هذا الوقت ، لم أعرف لماذا تقتربين خطوة وتبتعدين خطوات .»

قالت له : « لا أبحث عن رجل ، أبحث عن حلم " .. قال : "زمان ربما كنت الحلم الذى تبحثين عنه . لكننى الآن مجرد رجل "نهض واقفًا .. تسللت عيناه إلى أعمق أعماقها .. قال :"أنتِ وحدِك

تكتبين النهاية .. لا أعرف ماذا أقول أو أفعل .. هل اعتذر بالنيابة عن التوقيت الذى جمعنا .. بل الذى فرقنا .. أم أعتذر عن نفسى لكونى مجرد رجل " ..

مرت سنوات طويلة منذ هذا اللقاء الأخير .. الآن تجلس فى المكان نفسه ، تؤنسها حسرة الذكريات ، ووقع أوراق الخريف المتساقط .. تقدم بها العمر والحزن.

أحيانًا يخالجها شعور بالندم .. أضاعت من يديها رجلاً نادر الفهم .. والدفء .. ولكن لِمَ الندم وقد كانت صادقة معه .. قالت له حين عرض عليها الزواج « أنا لست امرأة ، ولكننى حلم .. والأحلام لا تتزوج » كانت صادقة معه ، حينما اعترفت له بأنها تبحث عن حلم مثلها وليس عن رجل .. الرجال يموتون ، أما الأحلام فباقية إلى الأبد ..

رنين كلماته المعتذرة الأخيرة ، تصنع مع صوت أوراق الخريف ، أجمل أنشودة ألم ، يعتصر قلبها .

ها هى وحيدة فى المكان نفسه ، بعد سنوات طويلة ، لا تريد حسابها . وحيدة ، مع أوراق الخريف ، وتجاعيد الحرمان ، كم تحن إليه .. كم تحن إلى رقصة أخرى معه ، على لحن "أوراق الخريف" كان الرجل الوحيد الذى قابلته ، ويعطى بسخاء دون مقابل .. حتى رفضها ، كان يقابله بالمزيد من العطاء . بعده ، اكتشفت أنه الرجل الوحيد الذى حقًا أحبها لشخصها هى ، لا لأنه يريد شيئاً .

كل مَنْ التقت بهم ، كانوا يتعاملون معها بكل اللطف ، والرقة ، لأنها كانت دائمة العطاء .. وحينما توقف عطاؤها ، توقف اللطف ، واختفت الرقة . إكتشفت أنه الرجل « الحقيقى » الذى مرَّ بحياتها . الجميع كانوا مسخاً أو أشباه رجال.

رجال لا شيء يحركهم ، إلا المصلحة ، والمنفعة ، والأخذ . كلهم على اختلافهم ، رجل واحد ، ملامحه الزيف ، واسمه الجشع .

مرت سنوات طويلة ، أخذت منها كل شيء ، ولم تعطها إلا الحكمة . ماذا تفعل بالحكمة ، والعالم لا يحتفى إلا بحماقات النساء ؟ لم تعرف طوال عمرها حماقات البشر المألوفة ، والتى يمكن غفرانها . لم تقترف إلا حماقة الحرية .. الحماقة الوحيدة ، التى لا تغتفر. اشتهاؤها الوحيد ، كان للحرية .. من أجلها تحملت العداء وسوء الفهم ..

كان هو الرجل الوحيد ، الذى يفهم ، ويحترم اشتياقها للحرية ، بل ويفخر به .. كان يفهم ، حين الآخرون يسيئون الفهم . كان يقف بجانبها ، حينما تتعرض للعداء والنبذ.

ما فائدة أن تذكره الآن ، ما فائدة أن تتحسر على شهامته ، وأصله النبيل ؟ كان أجمل وأروع ، ما حدث لها طوال حياتها .. تشعر بالبرد .. لا تدرى أهى برودة القلب الوحيد ؟

تدفع الحساب .. وإذا هى تهم بالنهوض ، تسمع لحن « أوراق الخريف » ينساب على البعد .. على وقع النغمات ، يأتيها مثل المرة الأولى رشيقاً .. وسيماً .. همست لنفسها : « يالكِ من واهمة حالمة ».

سمعت صوته يقول مقترباً « لستِ واهمة أو حالمة .. أنا هنا معكِ .. »

جلس إلى جانبها .. تجمدت فى مكانها .. تنظر إليه غير مصدقة .. ترتعش من المفاجأة .. تلقى بكل سنوات الحنين ، فى عينيه .. تغمرها نظراته بالدفء اللذيذ .. تغمض عينيها لتراه أكثر .. وبدقة.

قالت له : " أريد أن أتأملك طويلاً جداً .. أين ذهبت الكلمات ؟ تهرب حينما نكون فى أمس الحاجة إليها.. لا أعرف ماذا أقول "

قال : " مَنْ يحتاج الكلمات " ؟

قالت : " أحضورك الليلة مجرد صدفة " ؟

قال : " لا شىء يحدث صدفة " ...

قالت له : «أتعرف كم مضى من العمر ، منذ اللقاء الأخير ؟» ..

فى حنان رائع الود ، قال لها : « كان لابد لى من الاختفاء ، بعض الوقت ، حتى أعود إليكِ .. تعجلت الرحيل عنكِ ، لأننى كنت أتعجل الرجوع .»

قالت له : " أريد أن أتاملك طويلاً جداً . لازلت غير مصدقة ، أنك عدت ، وأنك تجلس إلى جانبى .. هنا . ولحن "أوراق الخريف" يعزف حولنا .

أطفأ سيجارته .. نهض واقفاً ، مد يده إليها قائلاً " أتسمحين لى بهذه الرقصة " . قالت : " ممنوع الرقص فى هذا المكان " . ابتسم قائلاً : « أحب الممنوعات » .

هكذا أنا .. هكذا أنت .. !

إلى أن تصعد روحى إلى بارئها ، سأظل أشتهيك . إلى أن تتمرد الأشجار على أغصانها المتشابكة ، ولونها الأخضر ، سيبقى وجودك ، فرحتى ، فى زمن لم أعش إلا عذاباته .

حتى تولد أسماك لا تموت ، حين يلفظها الماء ، سيظل الحرمان منك ، أحلى ارتواء .

حتى نهارات ، يزين سماءها القمر ، سأبقى – شئت أو لم تشأ – فى حياتك ومضة الشمس، وارتعاش المطر .

التقينا بالأمس بعد خصام ، لم يزدك إلا رقة ، لم يزدنى إلا عشقاً.

تدهشنى العلاقة معك . تخاصمنا كثيرا بلا أى مبررات للخصام . وتصالحنا كثيرا بلا أى مبررات للتصالح .

بعد كل خصام ، أرجع إليك ، وأنا أكثر طاعة لمراوغة شفتيك .. وترجع لى ، وأنت أكثر احتواء ، للطفلة المشاغبة الساكنة داخلى .

التقينا بالأمس بعد الخصام .

تخاصمنا ، فخاصمنى دفء الشمس ، وسحر الشتاء .
تخاصمنا ، فغاب مذاق قهوتى ، وأشعارى.

عشرون يوما ، مضت ، وبينك وبينى مسافات يقتلها سوء الظن ، وخيبة الأمل. أكاد استسلم ، وأمد يدى لأطلب رقم هاتفك لكننى أقاوم . وفى كل مرة أقاوم ، تشدنى هوة عميقة ، معتمة ، لا قرار لها.

أود بكل كيانى أن أحضن صوتك عذب النبرات ، لكننى أقسو على نفسى ، وأصدر لها أمر الموت.

نعم ، خصامك لا يعنى ، إلا أن الحياة قد ولت بعيدًا عن إدراكى .

خصامك ، لا شىء ،إلا أننى فقدت كل الخيوط التى تجمعنى بصمت الأشياء ، ولذة الجنون.

وبعد عشرين يوما من الخصام ، بالأمس التقينا.

لو تدرى ، كم صالحنى خصامك على الموت. لن يكون الموت أقسى مما أعانيه فى غيابك. لا شىء أكثر ألماً ، من أننى قد «هنت» عليك عشرين يوما .. فلمِ لا أرحب بالموت؟ لمِ لا يبدو الموت صديقا حنونا ، وأنت تتفنن فى تعذيبى ؟

جعلنى خصامنا الأخير ، مشتاقة إلى الموت . أحن إلى لحظة ألقى فيها وجه رب كريم لأسأله ، عن حكمة عذابى معك .

يا ربى ، لماذا رتبت أقدارك مصادفة ، لقائى مع رجل ، لا تنفع معه المواعيد ، والمصادفات ؟ لماذا يا ربى ، تقذف به إلى حياتى ، بعد أن أصبحت مشاعره عقيمة ، وقلبه عاجزاً عن دقة عشق؟

ما حكمتك ، أيها الإله المتوارى عن الأنظار؟ لماذا تلهمنى الحب الطاغى له ، وهو رجل لا تستهويه النساء ؟

يا للمفارقة الساخرة ، لها تنزف روحى . الرجل الذى لا تستهويه النساء ، ولا تجذبه أنوثة المرأة ، معه فقط ، أشعر أننى أنتمى إلى النساء ، معه فقط ، تنتشى أنوثتى .

يا للمفارقة .. لم أتخيل أننى يوما سأعيشها .. أن أحب رجلا ، لا يفكر فى الحب ..

يا لها من كأس مرة المذاق ، لا أحتمل أن أرتشف مرارتها فى كل لقاء .. أن أشتهى بكل ما أوتيت من قوة ، رجلا لا يشتهينى . لكن الحرمان منك لذيذ ، وموح ، وله طعم انفتاح الأسرار . رجولتك التى تنكرها ، هى الرجولة التى أحبها .

الحرمان منك أحتمله ، وأكتب فيه قصائد الغزل ، لأنه منك «أنت » .

التقينا بالأمس بعد عشرين يوماً من الخصام.

استسلمت لارتعاشات أصابعى ، وطلبتك عبر الهاتف . الرنين يطربنى .. والانتظار يشجينى أعذب الشجن.

طالت بيننا المكالمة ، وكيف لا تطول ، وهى التى أعادتنى إلى الحياة؟

قلت لك : « دعنا مما فات .. أريد أن أراك ».

قلت : « اليوم السبت ، ما رأيك فى يوم الثلاثاء ».

قلت لك : « الثلاثاء ؟ بعيد جداً ».

قلت : « الاثنين إذن ؟».

قلت لك : « الاثنين بعيد جدًا » .

قلت : « غدا الأحد ما رأيكِ ».

قلت لك : « الأحد غدا ، بعيد جدا ».

قلت : « لم يبق إلا الليلة » .

قلت لك : « الليلة ؟ بعيدة جدًا ، أيضاً ».

قلت فى حنان : « أنا فى انتظاركِ »

بعد عشرين يوما ، من الخصام ، ألقاك ؟

ألقاك نعيمًا ، من أجله أسابق الهواء ، وأنسى كل ما يغضبنى منك .

كل شيء منك أوحشنى ، حتى قسوتك تعودت عليها . وأنا حريصة على ألا أفقد عاداتى .

التقينا .

تمنيت لو يتوقف الزمن لحظة رؤياك .

التقينا .

تمنيت لو أخذتنى بين أحضانك ..

التقينا ..

تمنيت لو ينتهى الأجل وأنا بين يديك . مرَّ الوقت معك ، مرور الأطياف . لا أدرى أكانت ساعة من الزمن ، ساعتين ، أم الزمن كله اختصرناه فى لقاء ؟

قلت لك : « أنت فرحتى الوحيدة » .

الدهشة تكاد تذهب بعقلى . كيف تكون فرحتى الوحيدة ، وأنت تكره أنوثتى؟ كيف تفرحنى فرحة تفزعنى ، وأنت تلغينى كامرأة ؟ لكن هكذا « أنا ».. وهكذا « أنت ».

هكذا « أنا » .. وهكذا « أنت » ، مكتوب علينا هذا المأزق الجميل . لسنا نستطيع التراجع ، ولسنا نستطيع أن نكمل الطريق . هكذا « أنا » وهكذا « أنت » ، قدرنا أن نظل نحترق ، ولا أمل لنا فى حفنة من الرماد.

هكذا « أنا » .. هكذا « أنت » علينا أن نقف مكتوفى الأيدى ، أمام تساقط ثمارنا الشهية.

هكذا " أنا " هكذا " أنت " ، ارتضينا أن نحزم حقائب الدهشة ، وعلى درب مهجور نسير.

هكذا « أنا » .. وهكذا «أنت» ، في رحلة لا أول لها ، ولا محطة أخيرة . مصيرنا السفر دون وطن ، والصراخ دون أنين.

مصيرنا ، أن نبقى على وتر مشدود ، بين العربدة والعفاف ، بين السؤال والجواب ، بين الشك واليقين.

نصيبنا ، أن نظل معلقين في الهواء ، لسنا بالأرض نرضى ، وليس في وسعنا السماء.

تجلس أمامي . . أجلس أمامك .. الأغنيات المنسابة حولنا ، لا تنسيني أنك ، أخرست صوتي ، المتوهج بالشدو.

من يديك تشعل لي سيجارة . يمتزج دخان سجائرنا بعتاب لا نتجرأ على البوح به. سيجارة مشتعلة؟؟ أهذا كل ما تستطيع أن تقدمه لي ، بعد خصام عشرين يوما ؟ حتى كلمة « أوحشتيني » ، بخلت بها . لمَنْ تدخر الأشواق ، وحلو الكلمات ؟ ولماذا تلقاني بعد كل مرة خصام ، إذا كنت لم تفتقدني ؟ قلت لي كالمعتاد أشياء كثيرة متناقضة وكالمعتاد لا أدرى أين هي من الحقيقة .

قلت لي : « كل ما قلته لكِ انسيه .. ما أقوله الليلة هو الصدق ».

معك ، فقدت القدرة على تصديق الأشياء.. وفقدت القدرة على تكذيبها ..

أتأمل الستائر المواجهة جلستنا . تحب أنت دائما أن تفتحها ، وأحب أنا دائما أن أسدلها.

أحس أن الستائر مثلك تضطهد أنوثتي. أسمع صوتا خفيا بداخلك يقول : « يا لكِ من امرأة تستحقين الشفقة . ألا يزال عندكِ أمل. أبعد كل ما قلته لكِ ، تتشبثين بلحظات جدباء لا ثمر فيها ، ولا ماء .. يا لكِ من امرأة حمقاء ، تقطعين الطريق الطويل ، تسابقين الريح ، لتكوني معي . وأنا كما أنا و لا شيء أمنحه لكِ ، إلا كلمات نصفها كذب ، ونصفها الآخر ميت . يا لكِ من طفلة ألعب بها كما أهوى . أحركها كما يوافق مزاجي . مهما كان ذكاؤك ، لن تعرفي حقيقتي .. لن تدركي أسراري ».

ويلذ لي كثيرا ، أن أجعلك تعتقد أنني امرأة حمقاء ، أو طفلة تحركها أهواؤك. التقينا بعد عشرين يوما من الخصام. وإذا بالدنيا كما هي . عبثية الملامح ، لا حنان فيها ، ولا دفء يغري بالبقاء. التقينا بعد عشرين يومًا من الخصام . لا الشمس توقفت عن الغروب والشروق ، ولا السماء أصبحت أكثر علوا أو زرقة ، ولا عقلي ، أجاب عن أسئلة الوجود الكبرى.

تجلس أمامي وأجلس أمامك. سجائر مشتعلة ، ورغبات مطفأة .. حقائق مبهمة .. مشاعر مجهضة . تجلس أمامي ، أجلس أمامك ، والكون كله بيننا حائر .. مرتبك . ألتقط حقيبتي ..ألملم أنوثتي المشروخة ، أشرب الرشفة الأخيرة ، من مشروب لا يعيد

للأشياء مذاقها المفقود .. أنهض واقفة وأعتذر عن شيء ما ، لم أفعله .

تمسك يدى قائلا : « الليلة جميلة وأنا سعيد جدًا ، لأنكِ معى . أرجوك مهما يحدث بيننا ، لا تغضبى منى . أنت تعرفين كم أقدرك وكم أحترمك » .

تسألنى بنبرة صوت ، لا يهمس بها إلا عاشق مشتاق : " أترحلين الآن " . أهرب من العشق المشتاق مع وقف التنفيذ ، المطل من عينيك. أبعد يدى من دفء يديك ، وأقول : " نعم سأرحل الآن" .

تقول : « لماذا الآن ؟ ».

وأقول : « ولماذا ليس الآن ؟».

أعود وحدى ، وأقطع الطريق الطويل المعتم .. أقود السيارة بسرعة ولا مبالاة.. تنهمر دموعى .. ولا أدرى لم البكاء؟ يحيرنى حقا بكائى.

اخترته دون سواه من الرجال. والليلة أنهينا الخصام .

لمِ البكاء ؟ وهو فرحتى الوحيدة فى الحياة ؟ لمِ البكاء ؟ وأنا أصر عليه ، رغم كل شيء يقوله أو لا يقوله ، يفعله أو لا يفعله ؟ لم البكاء وهو إدمانى اللذيذ ، من بين كل الرجال ؟

لمِ البكاء ولو خيرت ، لاخترت المصير نفسه . أن أظل محرومة منك ، عن الارتواء مع أجمل رجل ، يمكن أن يتصوره خيالى . لمِ البكاء ؟ وبإمكانى فى أية لحظة أريدها الابتعاد عنك . بإمكانى فى أية لحظة أريدها ، الاختفاء من حياتك ، فلا تعرف عنى شيئا ، ولا تدرك لى عنوانا ، أو طريقا .

فى أية لحظة أريدها ، بإمكانى أن أرتاح ، وأتحرر ، مما يعذبنى معك ، ويغضبنى منك ، فلمِ البكاء ؟ يمكننى أن أقرر ، متى أشاء ، أن أراك كأى رجل . وأن أجعل قلبى محايدا تجاهك .

فلماذا تنهمر مِنى الدموع ؟

أعود وأقول ، هكذا " أنا " ، هكذا " أنت ". وغدًا قصة أخرى معك ، وبقية آتية ، لا محالة من الحرمان منك .

مـن أوراق عـام مضـى

يناير

اليوم الأول في عام جديد . خيوط الشمس تسكب دفئا حنونا . في حيرة تتساءل ، إلى متى سأظل بسخاء أمنح الجميع ؟ إلى متى الذى يستحق ، والذى لا يستحق ، له الحق نفسه ، في حنان الشمس ؟ النبيل والخسيس .. عاشق الخير ، ومحب الشرور .. الوفي والخائن .. القلب المفعم بالرقة ، والقلب الممتلئ قسوة .. المترفع عن إغراءات الدنيا الفانية ، والغارق في شهوات الجسد والمال ، والنفوذ والشهرة .. صاحب الحكمة والأحمق ..

اليوم الأول في عام جديد . تتساءل الشمس في حسرة ومرارة ، إلى متى إيماني بديمقراطية الدفء والنور ؟ ألا أبدأ العام الجديد بإيمان جديد ؟

« لا جديد تحت الشمس » .. إنه حقًا كذلك . وكيف يتجدد ما تحت الشمس ، والشمس نفسها لا تجدد إيمانها ؟

ومثل كل الأشياء العظيمة ، لا تملك الشمس ، إلا أن تمنح

نفسها للجميع دون تمييز . مثل كل عذاب لذيذ ، نتساءل ، نتحسر ، نحس بالألم . ونحن نعلم أن الإجابات كلها لا تجدى ، وأن كل تغيير يدركنا ، يرسخ القديم .

أحسد الشمس على سموها وتسامحها .

فبراير

شىء ما ، فى رمادية السماء ، يداعب خيالى بإيجاءات الشجن ، وينعش ذاكرتى بالأمنيات المستحيلة . شىء ما ، فى غيوم السحب ، يمنحنى العزاء فى اشتياقى المجهضة . أنا امرأة الشتاء ، ذات النهارات القصيرة ، والليل الطويل . لم تمطر السماء فى فبراير هذا العام ، وكذلك قلبى . كم أحن إلى ماء السماء .. كم أحن إلى ماء القلب .

يوافق فبراير رحيل أم كلثوم . هكذا سريعًا ، تطوى الحياة ، أجمل ما تأتى به .

أم كلثوم ، خسرت بعض المتع الزائلة في حياتها الخاصة ، من أجل المتعة الوحيدة الخالدة .. مجد الموهبة . إلهام لا ينضب ، لكل امرأة يسكنها مارد الفن ، وشيطان الإبداع . أشرد مع أم كلثوم ، تشدو من كلمات رامى ، ألحان السنباطي :

افرح يا قلبى

لك نصيب

تبلغ مناك

ويا الحبيب

افرح يا قلبى

« افرح يا قلبى » .. أهو رجاء وتوسل ؟ أم أمر صارم للتحريض على الفرح ؟

« افرح يا قلبى » .. معكِ يا أم كلثوم ، لا يملك الإنسان إلا أن يستجيب لدعوة الفرح . . لكن اغفرى لى ، لن أستطيع تلبية الدعوة .

فأنا أدرب نفسى منذ سنوات ، على تفادى لحظات الفرح . أريد أن أكتسب مناعة ضد الأفراح . الفرح يحببنى أكثر فى الحياة ، وإذا زاد الحب ، زادت حماقة الإنسان . الفرح يجعلنى أتشبث أكثر بالحياة ، ويؤرقنى أن أتشبث بما لا أملك السيطرة عليه . الفرح يملؤنى بالتوقعات ، وكلما كبرت التوقعات ، كبرت احتمالات خيبة الأمل . الفرح يجعلنى أندم على لحظات ضاعت . والندم يفسد كيمياء جسدى ، ويفرز السموم فى روحى .

أدرب نفسى ، على التحرر من أكبر رغبة تذل الإنسان .. الرغبة فى الفرح . لحظة الفرح الوحيدة ، التى أسمح بها الآن لنفسى ،

هى الاستغناء عن الفرح . يالها من لحظة . أجلس هادئة النفس ، أتفرج على البشر ، وهم يلهثون بحثًا عن الوهم المذل اسمه « الفرح » ..

« افرح يا قلبى » .. لا يزال الصوت يشدو بالأمل ..

كم يؤلمنى أن أخذلك يا أم كلثوم .

مارس

أجلس وحدى فى الشرفة ، أرتشف مشروبًا ، لا أدرى إن كان يذهب بالذكريات ، أم يأتى بها .

تأنقت .. تجملت .. تعطرت .. ملأت المكان بالورد .. تناثر عبير الحنين فى طرقات الروح ، وتهيأت لأجمل احتفال .

الليلة الحادية والعشرون من مارس . أحتفل الليلة بميلاد «نزار » ، عشقى الأوحد بين الشعراء ، وحبى الأول بين الرجال . كيف لا أعشق « نزار » ، حين يعزينى قائلا : « إن شرف الكاتب هو عدم انتمائه إلى مقاعد الموالين وصفوف المصفقين » .

« نزار » كيف لا أحبك وقد قلت « مَنْ يكتب عن الحب فى بلادنا ، يقاتل على أرض وعرة ، وفى مناخ عدائى ردىء » . ولابد أنك تعلم جيدا يا « نزار » ، أن الأرض تزداد وعورة ، والعداوة تصبح أكثر شراسة ، إذا كان كاتب الحب « امرأة » .

يلومنى الناس على حبك يا نزار .. يسألوننى كيف تحبين شاعرا ، يتغزل فى المرأة ، ليرسخ عبوديتها وقهرها .. ولا أدرى ، كيف لشاعر أن يفعل هذا ، وقد كتب قائلا لحبيبته :

لا أنتِ من صنف العبيد

ولا أنا أهتم فى بيع العبيد

إنى أحبك جدولا وحمامة

ونبوءة تأتى من الزمن البعيد

وأنا أحبك في احتجاج الغاضبين

وفرحة الأحرار فى كسر الحديد

أنا ونزار متشابهان ، كلانا ينتمى إلى برج الحمل . البرج الجامح .. النارى ..المتقلب .. الهوائى ، جامع كل المتناقضات ، فاقد التعقل ، والمنطق . كلانا يعشق الكتابة إلى حد الجنون ، إلى درجة الدمار .. أنا ونزار ، كلانا لم يتزوج إلا الحرية .

علاقة روحية غريبة ، بينى وبين نزار . هو أنا ، ولكن على هيئة رجل . كتابته ، أفكاره ، مشاعره ، مزاجه .. أقرؤه ، فأقرأنى فى أحزانى ، وأفراحى وعزلتى ، ولا انتمائى ، وجنونى .

الحادى والعشرون من مارس .. يوم ميلاد نزار .. إنه اليوم الذى يؤرخ لبدايات الربيع . يوم انتفاضة الأرض تمردًا على ركود الشتاء . أنسب توقيت ، لميلاد رجل أشبه بالبحر ، مثل نزار .

قبل أن يرحل « نزار » ، كنت أجهل كل شيء عن الموت . بعد أن أخذ الموت " نزارً " بدأت أتعرف قليلا على ملامحه . لابد وأن يكون الموت امرأة ، لتخطف رجلا مثل نزار .. امرأة مرهفة الحس ، متذوقة رائعة للشعر . امرأة ليست كالنساء .. لا يستهويها إلا رجل خارج عن النص ، غير قابل للوصف ، أو التصنيف .

صالحنى « نزار » على الموت .. لم أعد أخافه ، واعتذرت له عن كل شكوكى به ، وسوء فهمى له . حينما لا تتسع الحياة ، لشاعر مثل « نزار » ، يحن الموت ، ويبادر بكرم الاستضافة .

٢١ مارس ، كل عام وأنت يا نزار ، قامة شامخة فى قلبى ، وفى ذاكرة الشعر .

آخذ رشفة من المشروب المحير .. أتنهد ، وأتذكر كلمات نزار :

ليس الحب رواية شرقية

فى ختامها يتزوج الأبطال

إنه الإبحار دون سفينة

والشعور بأن الوصول محال

لو تعرف يا نزار ، كم أبحر قلبى يائسا دون سفينة ، وكم أدمنت كأس المحال .

أبريل

عدت يا شهر مولدى .

يقولون إن الزمن هو ألد أعداء المرأة . ربما يكون هذا صحيحا لنساء كثيرات . أما أنا ، فأتلهف لملاقاة الزمن . أشتاق لما يخبئه لى . أنا والزمن أصدقاء . نتبادل الأسرار ، والحكمة ، والسعادات الهاربة .

أنا والزمن فى حالة مصالحة دائمة ، نأكل ، ونشرب ، ونسافر معا . أحسن استضافته على ملامحى ، أرحب به على جلدى . الزمن صديقى الحميم ، المخلص ، لا يمل صحبتى ، والسؤال عن أحوالى ، وصحتى ، ومزاجى .

استيقظت يوما من النوم ، فوجدت أن عشر سنوات قد مرت من عمرى . استيقظت يوما آخر ، فإذا بعشر سنوات أخرى قد ارتسمت على خطوط وجهى . هكذا لا يكف الزمن ، صديقى الحميم ، من مداعبتى بمفاجأته اللذيذة .

صادقت الزمن ما يكفى ، لإيمانى بأن الحياة مأساة عبثية ، ارتدت قناع المهزلة الساخرة . هل هناك سخرية ، أكثر من أن يلعب الإنسان دور الممثل والجمهور فى آن واحد ؟

هل هناك هزل أكثر ، من أن الإنسان يعلم أن الموت نهايته ، ومع ذلك يكذب ، ويسرق ، ويقتل ، ويقهر ، ويمارس كل أنواع

الانحطاط ؟ هل هناك عبث أكثر من أن يعمر الحذاء ، ويرحل صاحبه ؟

يقول ألبير كامى فى كتابه أسطورة سيزيف ، إن الانتحار هو المشكلة الفلسفية الوحيدة ، الجديرة بالدراسة . تأملت الأمر ، وجدت أن المنتحر ، فشل فى رؤية الكوميديا الساخرة التى تغلف الحياة . الانتحار نتيجة طبيعية لإنسان ، أخذ الحياة بجدية أكثر مما تستحق ، وأكثر مما تحتمل .

لماذا لا نضحك ، وكل شيء حولنا يفيض بالسخرية ؟ ربما لو كنا متورطين في الوجود ، مثل البحار ، والأشجار ، والأنهار ، لاختلف موقفنا . لا شيء إلا الضحك ، يلائم مرورنا العابر على قارعة الكون ..

الآن ، أدرب نفسى على الضحك . أضحك على كل شيء . ولأننى أومن بمقولة « ابدأ بنفسك » فأضحك أولا على حياتى ، ورغباتى ، ومشاعرى ، وخيبة أملى ، وأحزانى ، ومسراتى . أضحك على دورى فى المهزلة الساخرة . الضحك هو بداية النضج ، والتحرر .. وهو الدواء الوحيد لداء العيش . ليس الضحك الساذج الذى يفعله أغلب البشر ، بدافع التسلية ، وقتل الوقت . لكنه الضحك النابع من المعرفة العميقة ، وطول التأمل ، والبحث عن أصل الأشياء ، وإدراك تناقضات الحياة ، والألم إلى حد النزف .

إنه الضحك الذى نمارسه ، حينما نكون فى أشد الاحتياج إلى البكاء .

مايو

مايو هو شهر البحر .. مع بدايات مايو ، ألملم ، المشاعر المنسية ، وأوراقا نصف مكتوبة ، وإلى البحر أسافر . البحر فى مايو ، غير البحر فى أى شهر آخر ..

أكون أكثر مع نفسي ، وأنا بصحبة البحر .. تتفتح شهيتى إلى أوجها ، وأنا على مقربة من الماء . أحنّ أكثر إلى الكتابة ، والحب ، ومقاطعة كل الخيوط ، التى تربطنى بتفاهات البشر .

أجمل لقاء بينى وبين الله ، وأنا قطرة فى البحر ، سابحة حيث اللا منتهى . تناغم مطلق يصل بينى وبين الكون ، حين تعانقنى الأمواج . يرجع نصف حماقة البشر وتعاستهم ، إنهم عاجزون عن تأمل الطبيعة . ويرجع النصف الآخر ، إلى أنهم حتى لو تأملوها ، يعجزون عن مصادقتها ، واستقبال إيماءاتهما . كل شيء في الطبيعة يغنى ، ولا أحد يرهف السمع لأنشودة الكون . ينشغل الناس بموسيقى المهرجانات ، والموسيقى المعلبة فى الشرائط ، وموسيقى التكنولوجيا الحديثة ، ولا أحد يستمع إلى موسيقى الحياة . هكذا تكلم البحر .

يونيو

تزوجت « فريدة » إحدى صديقاتى المقربات . وصلتنى دعوة الفرح المكتوبة بماء الذهب . تحمل الدعوة اسم والد العريس ،

واسم والد العروس ، اسم العريس ، واسم العروس . وسقطت من دعوة الفرح اسم أم العريس ، واسم أم العروس . نتشدق بحب الأمهات ، نرفعهن إلى منزلة شبه مقدسة .. وفى الدعوة إلى الفرح ، تسقط أسماؤهن .

أعرف صديقتى « فريدة » منذ فترة بعيدة . أجمل شيء فى صداقتنا ، أننا مختلفتان فى كل شيء . ورغم ذلك ، يجمع بيننا فهم إنسانى عميق ، ولحظات من الود لا أحسها إلا معها . كان لـ « فريدة » حلم واحد ، وأمنية واحدة ، أن تصبح اسما لامعا فى مجال الغناء .. وهبها الله صوتا متفردا فى شخصيته ، وحلاوته ، وحساسيته . لم تكتف فريدة بالغناء مع بعض الفرق ، ولكنها درست الموسيقى وتعلمت عزف العود .

تعرفت على زوجها ، فاشترط أن تترك الغناء ، وتتفرغ للبيت . استسلمت « فريدة » وأرسلت دعوات الفرح .

ما هذا الفرح ، المقام على قتل الأحلام والأمنيات ؟ من أين يأتى الزوج بهذه السلطة ؟ وكيف لإنسان مخلوق ، أن يحجب موهبة ، منحها الله الخالق ؟

وكيف استسلمت « فريدة » ؟

لا نسمع عن زوجة ، تشترط لإتمام الزواج أن يتخلى الرجل ، عن عمله ، أو موهبته أو هواياته .

يا خسارتك يا فريدة .. كثيرآت جدا الزوجات ويملأن بقاع الأرض .. قليلات جدا اللاتى يتمتعن بموهبة الغناء .. كل يوم تولد زوجة ، ولكن ليس كل يوم ، تولد مطرية .. كسبت البشرية زوجة .. وخسرت فنانة ..

أسكتت « فريدة » صوتا ، كان بإمكانه إسعاد الملايين ، من أجل إسعاد رجل واحد .

خطيئة وخيانة ، أن يهدر الإنسان ، موهبة أودعها الله فى قلبه ..

يوليو

فى يوليو منذ ثلاث سنوات ، مات أبى الذي أحمل اسمه ولون عينيه ، ورومانسيته ذات الميول الانتحارية . أنا ، وأبى ، لم نعش معا تحت سقف واحد . ولهذا السبب ، لم يعرف كل منا شيئا عن الآخر ، إلا الأشياء الجميلة . المعيشة المشتركة اليومية بين الناس تظلم القلوب . السقف الواحد ، يفسد أجمل العلاقات ، ويميت أحلى المشاعر . مع التكرار ، لا نرى إلا عيوب الطرف الآخر ، ولا نحس إلا بالملل .

سألتنى أختى : « لماذا لم تكتبى شيئا عن رحيل أبينا ؟

أنا مثلها تساءلت .. لكننى لا أعرف الرد . لا أعرف لماذا

انتظرت ثلاث سنوات ، لأكتب الآن كلمة عنه ؟ إننى حتى لم أبك ، على رحيله .. لا أعرف لماذا ..

هل لأن دموعي قد جفت منذ زمن بعيد ؟ لا أدرى ؟ هل عندما نكتب عن الآخرين ، نريد أن نخلد ذكراهم ؟ أم على العكس ، نريد أن نمحوها ؟ هل الكتابة عن الآخرين ، تزيد من تورطنا فى العلاقة معهم ، أم تحررنا منهم ؟

أبى .. مازلت أذكر لقاءنا الجمعة من كل أسبوع . كنت صديقى ، وكنت صديقتك . أطرق بابك تمام الخامسة .. ندخل حجرتك المنعزلة .. أجد فى انتظارى الشاى بالنعناع ، والسجائر ، واشتياقا لابنة ، تريد أن تعوضها سنوات الغياب .

نتحدث عن الفن ، والحب ، والغربة ، والموت ، والحنين لأشياء لا تجىء . فى تلك الأمسيات منحتنى ، حكمة سنوات العمر .

فى الجمعة الأخيرة قبل الرحيل ، قال لى أبى « لا تخشى الألم .. علمتنى الحياة أن الألم نار تحرق النفوس الصغيرة ، وتنير النفوس العظيمة .. لا تخشى الألم .. اقبلى عليه .. استسلمى له ، دعيه يقودك إلى كنوز نفسك .. وأنتِ كاتبة ، والكاتب المحظوظ هو مَنْ ينعم عليه القدر بالتجارب المؤلمة .. من رحم الألم ، وُلد كل إبداع عظيم ، وتشكلت أجمل الكلمات . اكتبى ، واكتبى ..

لا تتوقفى أبدا عن الكتابة .. لا يهمك آراء ، أو حتى تجاهل النقاد .. ولا يهمك أن يقرأ القليل من الناس .. لا تجزعى من

الهجوم أو الذم أو عدم التقدير ، ولا تفرحى بالمديح ، والإعجاب ، والجوائز . قلمك وحده هو الجائزة . ومتعة الكتابة وحدها هى المكافأة . لا تفكرى فى الشهرة . فالشهرة خادعة ، وهى طموح أنصاف الموهوبين ، وحلم مدعى الفن .. والشهرة تبعثر الذهن وتشتت الطاقة . كونى نفسك . عيشيها كما هى ، فى الحياة وعلى الورق . لا تفرطى فى حريتك ، فهى أغلى ما تملكين " .

أغسطس

ذهبت إلى دار الأيتام ، وطلبت أن أكفل طفلا ، أو طفلة . بعد عدة أيام ، أصبحت أما لطفلة لم تحملها أحشائى . من بين مئات الأطفال فى دار الأيتام ، اخترت « كريمة » .. شىء ما ، جذبنى إليها .. نادتنى عيناها العسليتان ، فلبيت النداء ، إلى أين ستأخذنى « كريمة » ؟ ! وما مصيرنا معًا ؟ لا أعرف .

أعرف فقط أننى أحتاج « كريمة » ، ربما أكثر من احتياجها لى . أحتاج تلك الطفلة الصغيرة ، لتكبر أمومتى .. لأتجاوز الأمومة البيولوجية الضيقة ، إلى أمومة أكثر شمولا ، وعطاء ..

كم يحتاج العالم إلى نساء ، ورجال يضحون بروابط الدم ، من أجل رابطة الإنسانية .

سبتمبر

مسكين أنت ، أيها الكائن المسمى بـ « الإنسان » . كم من الأقنعة ترتديها لإرضاء الآخرين .. وكم من الوقت تهدره ، فى الاستماع لكلام الآخرين . منذ أن تولد ، وحتى الموت ، وحياتك ، جهد لاهث ، للتعلق بأهداب الآخرين ، والدخول فى الطابور .

لماذا يسهل عليك أيها الإنسان ، أن تكون نسخة من الآخرين ؟ ويصعب عليك أن تكون نفسك ؟ منحك الله ، ذاتا متفردة ، لتنمو ، وتزدهر ، وتعلن عن وجودها الخاص .

يأتيك الموت ، إذا عشت حقيقتك . يأتيك الموت ، إذا لم تعش حقيقتك .

فلماذا لا تموت ، وأنت على حقيقتك ؟ أيها الإنسان ، اخرج عن الطابور .. كن نفسك .

أكتوبر

صدر لى كتابان هذا الشهر . أصبح عندى سبعة كتب تحمل اسمى . المزيد من الكتب .. المزيد من الأدب والفكر ، وإيه يعنى ؟ لا أحد يهتم ، لا أحد يقرأ . العالم مشغول بنساء أهم .

قدرى أن أكون كاتبة ، وأديبة ، فى عالم لا يلتفت إلا للممثلات ، والراقصات . نشرت بعض المجلات ، خبر صدور الكتابين . نزل

الخبر بخط صغير ، وفى ركن منزو من الصفحة . أما خبر استعداد ممثلة لفيلم جديد ، أو خبر سفر راقصة ، إلى باريس لشراء أزيائها ، لمسلسل تليفزيونى ، منشور فى منتصف الصفحة بخط كبير ، ومعه صورة ملونة كبيرة للممثلة .. وصورة ملونة كبيرة للراقصة .

سبعة كتب متنوعة تحمل اسمى ، مقالات أسبوعية فى قضايا فكرية عديدة . قصص ، وأشعار .. دكتوراه فى الفلسفة .. كل هذا عبث وكلام فارغ .

كاتبة إيه ؟ وأديبة إيه ؟ دكتوراه إيه ؟ وفلسفة إيه ؟ تذهب الشهرة ، والنجومية ، والاحترام ، والتقدير ، للممثلات ، والراقصات . كان يكفينى فيلم واحد ، وإن كان هابط المستوى ، لأصعد إلى القمة . تكفى رقصة واحدة ، فى ملهى ليلى درجة عاشرة ، لأصبح من نجوم المجتمع . مَنْ تمثل قصص الحب ، أهم من التى تكتب قصص الحب .

طوال العام ، تُعقد مهرجانات للاحتفاء بالممثلات ، والراقصات . وممثلة مستوردة تنزل ضيفة « شرف » فى مهرجان يومًا واحدًا ، مقابل مبلغ من الدولارات ، يكفى لإعالة عدة أسر العمر كله .

بدأت الكتابة منذ خمسة عشر عاما . لو أننى منذ خمسة عشر عاما ، « نشنت » على منتج ، أو مخرج سينمائى ، أو صاحب دار نشر أو ملهى ليلى ، أو رئيس تحرير ، أو مدير ، وتزوجته لأصبح

لى الآن شأن عظيم . لكننى لسبب ما ، يبدو أنه فى الجينات الوراثية ، تزوجت « القلم » .

لماذا يا ربى خلقتنى « كاتبة » قدرها أن تدمن القهوة ، وتحرق السجائر فى انتظار الأفكار والإلهام ؟ لماذا يا ربى ، خلقتنى « كاتبة » ، فى عالم ، لا يقرأ إلا ملامح الممثلات ، وحركات الراقصات .. حكمة إلهية غامضة ، فى صمت أمتثل لها ..

ولا عزاء للكاتبات .

نوفمبر

يأتى نوفمبر ، ومعه الذكرى السنوية لرحيل رجل نادر الوجود . .

مات مَنْ منحنى كل شيء .. الوقت ، الحنان ، الفهم ، رقة الكلمات ، ونبل التصرفات . أعطانى أجمل وأهم وأرقى إحساس .... أنه يزهو على الملأ بحب كاتبة وأديبة سابحة ضد التيار ، حرة القلم ، تعتصر الوحدة ،والألم ، لتغزل القصص ، والأشعار . امرأة غير كل النساء ، لا تضع المساحيق .. تتزين بالمحال ، لتنسجه على الورق أحلاما ممكنة .. حياتها هى أبدع ما تكتبه .

يساندنى حين يهاجمنى الجميع .. يمدنى بالأمل حين تجتاحنى نوبات اليأس .. يغفر لى حين تستعصى المغفرة .. يفعل

أشياء تتجاوز خيال أعظم عشاق زمن الرومانسية .. ينتظر عودتى ، حين أؤكد له أننى لست عائدة . احتمل جنونى ، غرابة تصرفاتى ، تقلبات مشاعرى ومزاجى . تعامل بحكمة مع توترى ، وعصبيتى ، حين أتوق إلى الكتابة وتتعثر بين أصابعى اللغة . يختفى ، حين يستشف أننى مشتاقة إلى وحدتى . يحب عيوبى قبل ميزاتى .. يحبنى حينما لا أستحق الحب .

مات فى ذروة الشباب

قالوا : « أزمة قلبية » ..

« أزمة قلبية » .. كيف يتأزم قلب ، ممتلئ بكل هذ الحب ؟

شىء ما فى أعماقى ، أنبأنى بما تخفيه الأقدار .

رقته وحساسيته المرهفة ، وسط رجال فى منتهى الخشونة والقسوة .. طباعه الكريمة فى عالم بخيل .. العاطفة الجياشة التى تفيض بها روحه ، بين رجال عاجزين عن الحب .. عشقه لامرأة حرة ، بينما الرجال يريدون نساء تابعات ، خاضعات .. تعففه من الجرى وراء ملذات الحياة .. كلها أشياء نادرة حظيت أنا بها . الشىء النادر قصير العمر .

أحسست معاناته .. مضطر أن يعيش فى عالم لا يرضيه . حالم بالعدل والجمال والحرية .. غاضب إلى حد الغربة واللاانتماء .. فى قلبه ، طاقة جامحة للحياة ، لا تفهمها الحياة .. أنا مثله ، حالمة ،

غريبة ، لا منتمية . لكن الكتابة تنقذنى . فى لحظات الإبداع ، أجد واحتى ، وخلاصى ، وانتمائى . أما هو ، فظل المحارب دون سلاح .. والمقاتل دون وطن .. واللحن دون غناء .

« أزمة قلبية » .. الأزمة الحقيقية ، كانت فى العالم حوله ، وليست فى قلبه .. لكن قلبه هو الذى توقف ، لا العالم .

فى ليلة من ليالى اكتمال القمر ، جاءنى قائلا : « كان لابد أن أنتظر حتى الليلة . اكتمال القمر يحفز على أشياء مجنونة . وهأنذا الليلة أمارس أقصى الجنون ، وأعترف أننى أحبك » ..

سألته : « هل من الجنون أن تحبنى ؟ » ..

قال : « حبك يستنزفنى .. يدمرنى .. أعرف أن نهايتى ستكون على يديكِ .. لكننى مسير .. مسلوب الإرادة .. منجذب إليكِ بقوة قاهرة ، تفوق قدراتى على الفهم " .

أحس أن موته عقاب لى . أهملته كثيرا ، تدللت عليه كثيرا .. أتعامل برقة مع رجال لا يعنون لى شيئا ، ولا أعنى لهم شيئا . ومعه أتعمد الخشونة ، وأبخل عليه بالرقة ، والاهتمام . أمتدح فى حضوره رجالا أقزاما ، وأتجاهله . وهو الشامخ حتى فى صمته . لرجل يناولنى كوبا من الماء ، أقول شكرا بحرارة . ومعه الذى يمنحنى كل شىء ، تخرس كلمات الامتنان . تؤرقه أحوالى ، وهى على ما يرام .. وعندما يمرض هو ، أستخسر فيه السؤال .

أقابل حقارة الآخرين المتعمدة ، بفهم ومغفرة . ومعه أتصيد هفوة غير مقصودة ، لأعاتبه بشراسة ، وأجرح مشاعره . وأستمتع كثيرا وهو يعتذر ، ويصالحنى ، دون ذنب حقيقى اقترفه .

بصوت رقيق .. يترك رسالة تليفونية ، واحدة تلو الأخرى ، ويعجبنى أنه دون جدوى ينتظر . ولماذا أرد رسائله ؟ أعرف أنه سيعاود الاتصال ، أعرف أنه يتحمل أية معاملة ، أعرف أنه يمتص كل حماقاتى معه . وأعرف أنه هو وحده ، خلق العلاقة ، هو الذى قدم لها أسباب النمو ، والاستمرار . ومَنْ يبنى ، ليس من الهين عليه أن يهدم . كان يبذل جهدا خرافيا لإبقاء العلاقة واستمرارها . جهدا يكفينا نحن الاثنين .

كان يحلو لى ، أن أراه فى دور العاشق المتيم ، الذى يحسدنى الناس عليه . بينما أمثل أنا ، دور المعشوقة التى تعيش الاستغناء ، ولا تسمح لقلبها بالتورط .

بخشونتى معه ، كنت أعاقبه . أعاقبه على كل الحب الذى يمنحنى إياه .. فلا أحد من البشر على وجه الأرض ، يستحق مثل هذه العواطف النبيلة . وأنا على الأخص ، لا أريد أن يحبنى أحد ، بكل هذا السخاء . كانت قسوتى نوعا من الانتقام . يشعرنى عطاؤه الفياض ، وغفرانه الدائم ، ونبل مشاعره بالعجز ، والضآلة ، والدونية . فى كل موقف يحرجنى ، يؤكد أنه الأكثر رقيا ونبلا . يداعبنى أحيانا قائلا : « أرجوكى لا تحاولى إيذاء

مشاعرى . أشفق عليك من عقاب القدر » . لم تكن مداعبة . كل مرة أقسو عليه ، كان يحدث لى ، شيء ضار ، يحذرنى ولم أكن لأتعظ .

وتزداد قسوتى عليه ، حينما أشعر أننى ، أزداد احتياجا إليه ، وأن رقته الدؤوبة تكاد أن تهزم قسوتى . ذات ليلة قال لى : « أشكركِ على قسوتكِ .. علمتنى الكثير . علمتنى أن الهروب من القدر خطيئة . وحبك قدرى وإن تسبب فى ألمى وأحزانى . أدمنت معك طعم الألم والحزن . ألم يطهر الروح وحزن يشعرنى بالأمان . حبكِ ابتلاء كنت أحتاج إليه ، لأسمو ، ولأعرف مَنْ أنا » .

إنه هذا السمو الذى منعه من الإبداع . فالمبدع أكثر البشر عشقا لذاته ، وتمسكا بها . أما هو ، فقد منحنى ذاته ، رهن إشارتى ، أفعل بها ما يحلو لى . الإبداع يتطلب قدرا من الشيطانية وهو كان ملاك الخير المطلق . لم يكن يصلح لأن يبدع ولم يكن يصلح أن يكون ملهما للإبداع . يسألنى : « لماذا لم تكتبى عنى ؟ ما الذى ينقصنى عن الرجال ، الذين يلهمونك القصص ، والأشعار ؟ »

وكانت إجابتى : « مشكلتك أنك لا ينقصك شيء . أنت الخير ، وأنت العطاء ، وأنت الفضيلة ، وأنت الوفاء . أنت الرجل الصواب .. والفن يحتاج إلى الرجل الخطأ .. أنت الوسادة المريحة ، التى ترسلنى إلى النوم . والإلهام يلزمه الرجل المتعب ، الذى يؤرقنى ، ويذهب عنى النوم . أنت مسالم ، تهدئ المشاعر ، والإبداع لا يستنفره إلا رجل ، مهاجم ، يضرم النار فى المشاعر » .

يقول فى نبرة أسى : « أغار من كل رجل ألهمك قصة ، أو قصيدة .. أمنيتى التى أعرف أنها لن تتحقق ، أن تكتبى عنى .. أن ألتحم بحروفكِ وكلماتكِ » .. يا للمفارقة .. كان عليه أن يدفع حياته ثمنا لكى تتحقق أمنيته . كم أتعذب ، لأنه لن يقرأ كلماتى عنه .. كم تنزف روحى . فالليلة إحدى ليالى اكتمال القمر .. أهذا انتقامك أيها الحب ؟

كان حبه هدية من السماء ، وقابلت الهدية بالجحود ، والعناد ، والمكابرة الحمقاء . أخذته قضية بديهية ، فأخذه القدر .

« لا أريد إلا أن تتركينى أحبك .. سعادتى هى أن أعطيكِ . أتعذب حينما تبتعدين ، لأن البعاد يحرمنى من العطاء » . . كانت هذه كلماته .. لم أصدق أن هناك رجلا ، يحب دون قيد أو شرط ، لم أصدق أن هناك رجلا ولا يفكر فى الأخذ .

نوفمبر .. والذكرى السنوية الخامسة لرجل كانت له أخلاق الفارس .. أحبنى فى ليالى اكتمال القمر ..

رجل أعطى كل شىء .. ولم يأخذ شيئا إلا الألم .. رجل قتلته قسوة العالم وحماقة امرأة .

لماذا تنطفئ سريعا ، القلوب المشعة بالضياء ؟ لماذا لا نعرف قيمة الأشياء ، إلا بعد أن نفقدها ؟

ديسمبر

من مزايا النضج الإنسانى (وقد يكون أحد تعاريفه) ، إنه يجعلنا نعبر الجدار الوهمى ، الفاصل بين ما نسميه « الشئ الصغير » و « الشيء الكبير » .

جوهر التميز أشياء صغيرة . الذى يميز حياة عن أخرى تفاصيل صغيرة ، دقيقة . الذى يميز إنسانا عن آخر ، لفتات صغيرة . ما يفسد يوما بأكمله كلمة فى الصباح عابرة .. ما يحدد مستقبل إنسان ، شيء صغير ، فى الطفولة .. وردة صغيرة تصالح عاشقين طال بهما الخصام .. شيء صغير يكشف عن جريمة معقدة .. الفيروس صغير جدا ، ويستطيع الفتك بالإنسان ، والذرة صغيرة جدًا ، وتحوى طاقة هائلة . أغنية بسيطة نسمعها ، ترشدنا إلى دواء الروح .

هل الفن شيء آخر ، غير الانفعال الكثيف بما يسميه الآخرون « أشياء صغيرة » ؟ كم من ابتسامة عابرة ألهمت الشعراء أجمل القصائد . مواقف صغيرة ، فجرت الروايات والقصص ، واللوحات .

« الشيء الصغير » ، يصبح بحجم الكون ، إذا تناوله فكر عميق ، متعدد الأبعاد ، متشوق للفهم وحل الأسرار . و « الشيء الكبير » يناله التسطيح والتفاهة مع فكر ضيق الأفق ، ضحل الأبعاد .

قبل « نيوتن » ، كان سقوط تفاحة من أعلى لأسفل ، شيئا صغيرا » ، « تافها » ، يحدث فى اليوم الواحد مئات المرات ، ولا أحد

يلتفت إليه . لكن « نيوتن » ، وجده شيئًا كبيرًا ، بل ومحيرًا .
وفى هذا الشىء ، عثر على أحد قوانين الكون .

كم هى « كبيرة » ، تلك الأشياء « الصغيرة » . الجميع قادرون على رؤية وفعل الأشياء « الكبيرة » . ولم لا ؟ فهى «كبيرة » مرئية ، محسوسة ، واضحة ، وعيب مخجل ألا نراها . بعد طول تأمل ، أؤمن « أن الإنسان الكبير هوالقادر على رؤية وفعل الشىء الصغير » .

الحياة نسيج واحد متصل الأجزاء ، متسق المكونات ، يرفض التجزئة والفصل . كل شىء مهم ، كل شىء موحٍ . فى أصغر الأشياء ، يكمن قلب الحياة كلها ، وحقيقة الوجود . وفى أبسط لحن ، يرقد إيقاع الكون .

ولكن مَنْ يتأمل ، ومَنْ يرهف السمع ، فيردد صيحة "بوذا" ، سلام لكل شىء حى ؟ .

الفهـــرس

مؤلفات سابقة

١ - أجمل يوم اختلفنا فيه - مجموعة قصص - دار نشر مدبولى ١٩٨٧

٢ - رجل جديد فى الأفق - مقالات - دار نشر تضامن المرأة العربية ١٩٨٨

٣ - بدون أوراق - مجموعة قصص - دار نشر مدبولى ١٩٩٠

٤ - هاتف الصباح - قصائد - ١٩٩١

٥ - البحر بيننا - مجموعة قصص - دار نشر سعاد الصباح ١٩٩٣

٦ - الحب مع مغامر مرتبك - مجموعة قصص - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩

٧ - الحب فى عصر العولمة - مقالات - سلسلة إقرأ - دار المعارف ١٩٩٩

تحت الطبع :

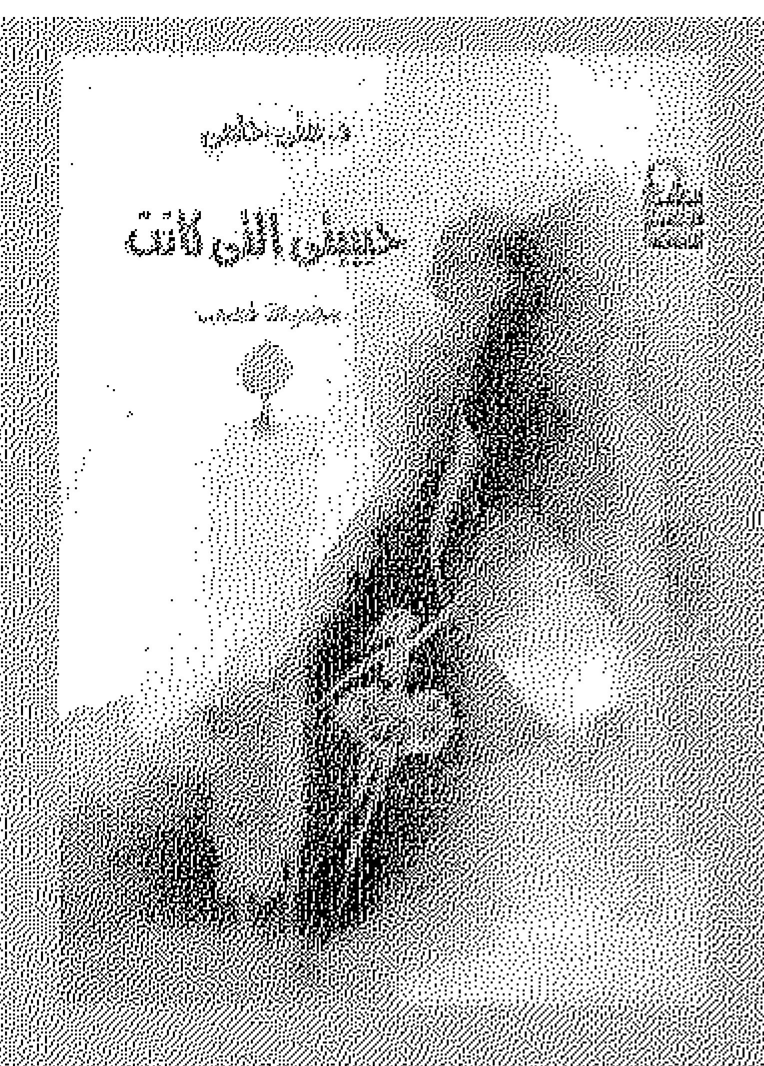
١ - ملكات الجمال وملكات الإبداع - مقالات

٢ - مُسافرة إلى المحال - قصائد . ترجمت إلى الانجليزية عن دار نشر A.V.L International inc الولايات المتحدة

٣ - حبر و دم - قصائد

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٤١٢٢ / ٢٠٠٣



قالت له : « أبحث عن عاطفة ضد الملل ، لديها قناعة ضد الذبول ، والفتور .. تكلمنى عن الحب ، الحب عاطفة مستهلكة تلوكها القلوب والألسنة ، أنا الأخرى غريبة حتى عن نفسى وعن تنهداتى ، وأنفاسى ، وشكل ملامحى ، ولون عيونى وفصيلة دمى ، لا أريد الانتماء إلى إنسان ، لا أريد الارتباط بأشياء قابلة للزوال .. أهفو إلى أشياء لا تفنى ، ولا تزول .. » . قال لها : « ليس بإمكان أى رجل فى العالم أن يزيل غربتك . لا يوجد رجل على كوكب الأرض ، يستطيع أن يمنحك العاطفة التى تبحثين عنها » .

